

شمس لا ضيل في أمريكا

من أدب الرحلات

د. محمد الجوّادى



دار الشروق

شَمْسُكَ لَصِيْلَةٌ
فِي أَمْرِيكَ

الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق
أسسها محمد المصطفى عام ١٩٦٨

القاهرة : ١٦ شارع حواد حسي - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣

فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تليكس : SHROK UN 93091

بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

فاكس : ٨٦٧٥٥٥ - تليكس : SHOROK 20175 LE

دكتور محمد الجوّادى

شمس لا صيک
فی امریک

دار الشروق

الغلاف : الفنان محمد حجى

الخطوط : محمود إبراهيم

إلى

إلى روح عاشق النشر،

الأستاذ محمد المعلم

المتقن العربى العظيم

مقدمة

كان من حظى أن أزور أمريكا عام ١٩٨٣ ، وكان من حظى أن أزور أمريكا عام ١٩٩١ ، ولكنى بدأت الزيارتين بنفسيتين مختلفتين ، فقبل الزيارة الأولى كنت فى غاية الشوق إلى زيارة أمريكا وجاءت الفرصة الأولى فى ١٩٧٨ ، ولكنى كنت يومها قد بدأت خطوات السفر إلى الأراضى المقدسة لحج بيت الله ، وجاءت الفرصة الثانية فى ١٩٨٣ فلم أتوان * .

كانت دعوة لحضور ندوة عن الشيوخوخة والتقدم التكنولوجى لمدة ثلاثة أيام فقط ولكنى انتهزت الفرصة وأثريت الزيارة بعدة برامج خططت لها قبل السفر ثم فى أثناء وجودى فى أمريكا نفسها : و فيما بين ١٩٨٣ و ١٩٩١ جاءتنى الفرصة لزيارة الولايات المتحدة الأمريكية ولكنى كنت متردداً ربما بأكثر مما كنت متحمساً فيما مضى لزيارة أمريكا .

بل إننى فى إحدى المرات حصلت على تأشيرة الدخول وحجزت تذكرة الطيران ولكنى فى آخر لحظة أثرت البقاء فى القاهرة لأقطع خطوات كبيرة فى عمل تاريخى كبير لم أنته منه بعد ، وفى مرة أخرى كانت أمامى فرصة محددة باليوم لبدء زيارة طبية ذهبية لواحد من أكبر مراكز طب القلب فى أمريكا والعالم ، ولكنى أثرت أن أبقى حتى لا ينفرط عقد ما بذلت من جهد فى رسالة الدكتوراه .

* عن هذه الزيارة كتب المؤلف فصلا من كتابه " رحلات شاب مسلم " ، دار الصحوة ، ١٩٨٧ " .

وفي آخر ١٩٩٠ كان على ما أبلغت تليفونيا وتلغرافيا أربع مرات في يومين متتالين أن أتوجه من فوري للكشف الطبى وفي اليوم التالى للسفارة وفي اليوم الثالث أو الرابع استقل الطائرة لأكون في جورجيا حيث يُقدر لى أن أقضى ثمانية عشر شهراً في ظل منحة السلام التى حصلت عليها لجمع المادة العلمية للدكتوراه .. ولكنى اعتذرت فلم أشأ أن أسافر لمجرد السفر وبخاصة أننى كنت قد ناقشت رسالة الدكتوراه منذ ثلاثة شهور.

أحب أن اعترف أننى ظللت متردداً في قرار زيارة أمريكا حتى بعد أن وصلت الطائرة إلى باريس ثم إلى نيويورك ثم صالة مطار جون هوبكنز بكليفلاند ، ساعتها كنت أتحرك وقد تملكنى التردد تماماً بينما أنا أحمل حقيبتى الخفيفتين، وفجأة وجدت اسمى على لافتة يحملها شاب وسيم يسألنى هل نذهب لاستلام الحقايب فقلت له ليس لى إلا هاتين ، فحمل عنى إحدهما وخرجنا من صالة المطار لأجد أمامى سيارة بيضاء طويلة ذات أبواب ستة كأنها هى سيارة ريتشارد في مسلسل فالكون كريست .. تمهلت لأتذكر فالكون كريست وأنجيلا وريتشارد وماجى وميلسيا والصينى العجوز ، وبدا كما لو أننى سأستغرق في استدعاء ذكريات .. أو قل إن شيئاً من الشرود اعترانى .. وسرعان ما أفقت لأجد أن حقيبة هذه السيارة مفتوحة وأن حقيبتى قد استقرتا هناك وها هو الشاب الوسيم يغلّق باب السيارة ويتقدم إلى الباب الخلفى الأيمن ليفتحه وليدعونى إلى الركوب ، وينتظر حتى أجلس ثم يفضل بأن يشير إلى عشرة أضرار كهربائية في سقف السيارة في تناول يدي ويقول إن هذه مفاتيح كل شىء في هذا الصالون .. ويغلّق الباب على وينصرف إلى الناحية اليسرى ليفتح بابه ويربط حزامه ويقلع بنا !!.

في هذه اللحظة فقط بدأت أحس أنه لم يكن ينبغي لي أن أتردد في مثل هذه الزيارة. أنا أربأ بك عن أن تسارع فتتهمني بأنني انبهرت حين ركبت الليموزين الأمريكاني .. ولكني لن ألومك إذا اتهمتنى .. حتى ولو لمت نفسي لو اتهمتنى بهذا .. لي الحق في أن ألوم نفسي .. ولنفسى الحق في أن تلومنى.... ولكني لن ألومك إذا ركبت صالوناً داخلياً جميلاً ينظر كل من فيه إلى بعضهم تضغط زراً فيضئ التليفزيون ، وزراً آخر فينضبط التكيف وآخر فيعمل الراديو ، ورابعاً فتتزل ستارة زجاجية بينك وبين السائق في كابينة بحيث لا يسمعك ، وخامساً فتتزل ستارة معدنية سوداء بينك وبين السائق بحيث لا يرى ما تفعل ، وسادساً فتضئ الأضواء الجانبية الهادئة ، وسابعاً فتضئ الأنوار السقفية المبهرة ، وثامناً فتؤمن إغلاق الأبواب عليك ... إلخ . وإلى جوار يدك اليمنى في باطن باب السيارة الريموت الذى يضبط لك ما تشاء من قنوات التليفزيون وصورته .. إلخ . ومفاتيح قنوات الراديو . وأشياء أخرى . ثم هذا الصالون الجميل المسمى بالليموزين يتحرك وكأنه لا يتحرك ويسرع وكأنه واقف ، ويعبر طرقاتاً من فوقها طرق ومن تحتها طرق وعن يمينها طرق وعن يسارها طرق ... وبينما الجليد يغطي أرضاً إلى يمينك .. فإن الخضرة تغطي الأرض التي إلى الناحية الأخرى .. والأضواء المبهرة أو الملونة تأتي من بعيد وسرعان ما تخبو ثم تعود .. وهذا هو طريقنا إلى المدينة شأن كل مطار إلى مدينة - أحياناً تراه جميلاً حتى لو كان موحشاً ، وأحياناً يكون كطريق باريس أو القاهرة أو بومباي عامراً بكل ما يبعث على الراحة والسعادة ولكن حرارة الجو أو رطوبته ومشقة الطائفة من قبل تجعلك تود لو ينتهى هذا الطريق بزحامه وإشاراته لتعود إلى مشاهدته مرة أخرى! وأحياناً يكون هذا الطريق شيئاً آخر غير الدولة التي هو فيها، كطريق المطار في نيروبي عاصمة كينيا، ومع أن الطريق من جون هوبكنز إلى كليفلاند ليس فيه شيء مميز

عن أمريكا التي نعرفها جميعاً والتي زرتها من قبل .. إلا أن ترددي في السفر إلى أمريكا كان قد قارب التلاشي تماماً حين كنت لا أزال في هذا الطريق . بل ربما بدأت ألوم نفسي على تفريطي في الفرص المتكررة التي اعتذرت عنها . وطيلة الفترة التي قضيتها بعد ذلك في أمريكا.. كنت أعود إلى التردد ، لا لكي أتردد فحسب ولكن لأحكم على نفسي : هل أصبت ؟ أم أخطأت ؟ .. لا أقصد في هذه المرة فحسب ، و لكن في المرات الأخرى التي ترددت فيها في المجيء .

وتعود بي الذكريات إلى أوقات كثيرة بات فيها كل من حولي مقتنعاً بأنني على وشك الهجرة إلى هذا البلد! وأنا متعجب من أين جاءهم الاقتناع الذي لم ألمسه في نفسي حتى الآن ولو لحظة واحدة! ولم أمهد له أبداً بأي إجراء !! هل أنا محق في تعجبي ؟ أم أنني هاجرت من دون أن أدري ؟

تعالوا بنا نقرأ هذه الصفحات المتفرقة لعلنا نستطيع أن نستكشف معاً الإنسان والمكان والزمان .. بل لعلكم تستطيعون أن تكتشفوا ما لم أستطع استكشافه حتى الآن وإن رأيته بعيني ووصفته لكم في هذه الصفحات!

١١ أبريل ١٩٩١

محمد الجوردي

الفصل الأول هل تغيرت أمريكا

(١)

هل تغيرت أمريكا .. هل غيرت أمريكا نظرتها إلى العالم ؟ كنت أتحدث في عشاء (بالنسبة لى إفتار رمضانى) فى نادى كليفلاند للتزلج على الجليد (Cleveland Skating Club) فى اليوم التالى لوفاة الأديب البريطانى جراهام جرين ولا أعرف ما الذى قادنى إلى أن أقول : إنه من الطريف أن جراهام جرين لم يحصل فى الخمسينيات على تأشيرة دخول الولايات المتحدة الأمريكية على أساس تعاطفه مع الاتجاهات الشيوعية وذلك بسبب سياسة المكارثية التى تعتزم أمريكا التخل عنها نهائياً هذا العام.. ربما .. أردفت ...إن حمى عداوة الشيوعية كانت تنتاب أمريكا فى هذه الفترة . أما اليوم فقد تفضلت إحدى السيدات الحاضرات فروت لى كيف يأتى الروس اليوم إلى أمريكا فى جماعات ، وأنها شخصياً تفاجأ فى المدرسة التى تعمل بها بمجموعة مترابطة من الأطفال الروس جاءوا مع بعضهم ، وقبلتهم المدرسة مع بعضهم أيضاً، ومهدت لهم دروساً تعليمية تهيء لهم الانخراط فى التعليم الأمريكى بأقصى سرعة .. وسرعان ما ينجح هؤلاء فى الانخراط فى الحياة الأمريكية ..

هؤلاء الذين جاءوا وكانهم لا يعرفون حرفاً من الانجليزية على حد تعبير محدثتنا !! إذن أمريكا لم تتغير، ولكنها لازالت توظف كل ما هو متاح لها فيما هي محتاجة إليه .. والحاجة تتغير مع الزمن ، وتغير أمريكا بالتالى فى توظيفها للمتاح فتبدو وكأنها تتغير!!.

وتسألنى مزيداً من الإيضاح فدعنى أتحدث معك عن قطاع الطب . تصور أن أى قسم من الأقسام فى أى مستشفى من المستشفيات الأمريكية استبعد من أطباء هذا القسم أولئك الأوروبيين والشرقيين والعرب واللاتينيين(القادمين من أمريكا الجنوبية) أى كل أولئك الذين حصلوا على شهادة المعادلة قبل أن ينخرطوا فى الطب الأمريكى ، احصر هؤلاء واستبعدهم من العمل فى هذا المستشفى . ستجد أنك ربما تختزل القسم إلى أقل من نصفه وربما إلى أقل من ربعه .. هل سيتوقف القسم . لا . لن يتوقف فى أمريكا عمل أبداً ولكن مستوى الاداء والامتياز سينخفض بالطبع.

أمريكا ليست بلد الأمريكيين وحدهم وإنما هى بلد كل العاملين المجددين المتميزين ، هكذا فهم الأمريكيون معنى أمريكا منذ بدأوا يقيمون إمبراطوريتهم .. وهكذا أفهمتهم إمبراطوريتهم فيما بعد من دون أن تتحدث الإمبراطورية .. إنما يشبون فيجدون بلدهم يتقبل من يضيف إليه فيجدون أنفسهم جيلاً بعد جيل حريصين على أن يتقبلوا كل من يؤملون فيه أن يضيف إليهم . و هكذا تتضاءل العنصرية القومية فى أمريكا حتى تصل فى رأى البعض إلى العدم ، وفى رأى البعض الآخر إلى العدم المدوم ا .

ولكن أمريكا فى ذات الوقت ليس بلد كل المهاجرين ولا كل الطموحين أو كل الشاردين أو الذين يجيئون من شُذاذ الآفاق . أمريكا بلد الذين يجيئون لمهمة محددة تحتاجها أمريكا قبل أن يحتاجوها هم .

هل من حقى أن أستطرد لأحكى لك ياسيدى أن بلاداً عربية مرت فى العقدين الأخيرين بالفرصة الكبرى التى تتيح أن تفيد من التجربة الإيجابية التى خاضتها أمريكا حين طُعمت شعبها على النحو الذى طعمته به . والذى لازالت تطعمه به ؟ نعم كان فى وسع بلاد العرب الغنية وهى تستجلب التكنولوجيا العظيمة التى استوردتها أن تتخلى بعض الشئ عن قومياتها المحدودة لتعطى الجنسية الكاملة لأولئك الخبراء والفنيين الذين يديرون حياتها التكنوقراطية بل وأن تغريهم على حمل هذه الجنسية بكل الوسائل التى تملكها ، ساعتها لم يكن من حق أحد أن يفكر بينه وبين نفسه فى أنه هناك فى تلك البلاد إلى حين ، وإنما كانت هذه المجتمعات قادرة على تذويب عدد كبير من الكفاءات الممتازة فى كيان هذه المجتمعات، على نحو ما فعل الأمريكان الأوائل بإخوانهم البريطانيين والألمان والفرنسيين والعرب .. الذين ذهبوا بعدهم بمائة سنة أو مائتين .

كان فى وسع هذه الدول أن تحتفظ ولسلايد بأربعة آلاف طبيب مصرى من خيرة الأطباء المصريين يصبحون فى خلال عشرين أو ثلاثين عاماً مرتبطين بهذه الدول من جميع النواحي بارتباطات اللسان والمستقبل والماضى والأسرة والاستثمار والولاء ، كما حدث للأوروبيين فى أمريكا ، وأنا أتلفت حولى فأجد الطبيب الفلبينى أو الإيراني أمريكياً - مواطن أمريكى تماماً . بينما أسرته بأكملها فى الفلبين أو إيران - الطبيب المصرى كذلك - أسأل إحدى الفتيات عن الملامح البولندية فيها أمى بولندية ؟ .. فتقول : بل أبوها جاء من بولندا.. هذه الزميلة ولدت فى سالزبورج ولكنها أمريكية فحين ولدت هناك مات أبوها فى طريقهما إلى الولايات المتحدة ، ومديرة التأمين الصحى يوغوسلافية الأب والأم ، ومديرة النشر ألمانية الزوج والأب ، وسكرتيرة قسم الأسنان أيرلندية الأب ألمانية الأم ، وطبيب الأسنان إيطالى الأبوين ، وسكرتيرة

قسم الأوعية الدموية الإيطالية الأب أيرلندية الأم ، وزميلتنا الجديدة في الرعاية
المركزة سويدية الأب.

ما أكثر مَنْ هم حولي الآن من الذين لم يُولدوا في أمريكا ومع ذلك هم
أمريكان .. ولكننا في بعض البلاد العربية وعلى رأسها مصر مصممون على ألا
يكون مصرياً إلا من ولد من أبوين مصريين ، وبعد حين سيطور القانون من
تلقاء نفسه بالتقادم وبدون حاجة إلى نصوص ليصبح ومن جدين مصريين
ثم من سلالة مصرية إلى الجد الرابع !!! ، بل ربما وصل الوضع إلى
هذا الحال ! .

(٢)

وأعود للسؤال الذي بدأتُ به هذا الفصل : هل تغيرت أمريكا حين بدأت
ترحب بالروس بعد أن كانت ترفض مجرد دخول الأديب البريطاني جراهام
جرين لانه ربما يناصر الشيوعية مع أنه لم ينتم إلى الحزب الشيوعي إلا
بضعة أسابيع عابرة !!.

ما أسهل أن يجيب المرء على مثل هذا السؤال بطريقة يجتمع فيها الذكاء
والخبث ويقول : بل روسيا هي التي تغيرت ، حين تركت الشيوعية ، وحين
تركتها رحبت بها أمريكا .. ولكن المسألة أعمق من هذا بكثير . إن أمريكا بلد
مؤسسات وبلد سياسات قبل أن تكون بلد أهواء ، أو علاقات مودة
أوتشفى !!

أمريكا تقدر أنها في حاجة إلى مائة ألف عامل بسيط ، وإلا فإنها ستعاني
تسلط العمال البسطاء ودكتاتوريتهم ، حتى وإن كانت محدودة الأثر .. إذن
فلا مانع من أن يغض البوليس الطُرف عن الذين يقيمون بصفة غير شرعية

ليقوموا بمثل هذه الأعمال البسيطة . حتى إذا وصلت أمريكا إلى المرحلة التي تحس فيها أن البطالة تهدد اقتصادها ، عندئذ يفتح البوليس عينيه أو يتظاهرا بأنه يفركها وهو يرى هؤلاء المهاجرين المقيمين بصفة غير شرعية .

نفس الأمر في الطب — ربما أوافقك (وأنا سعيد بالطبع) أن الطب هو قمة المهن ، وأنه سواء في أمريكا أو في مصر أو بنجلاديش يمثل الطموح الأعظم لما يسمى بطبقة " الكريمة " في شباب الوطن ، نعم . ولكن المسألة في الطب أعمق من هذا — إن الطب يؤدي وظيفة إنسانية مُلحة أكثر مما يتحكم في عنصر من عناصر سيادة الدولة نفسها .. ولهذا فإن طموح أى مجتمع ناجح إلى أن تكون الوظائف المؤداة فيه على أعلى مستوى لن يمانع في أن يعطى الفرصة في أداء هذه الوظيفة لمن هم أقدر عليها .. فإذا كان الأطباء الأمريكيون قادرين على أن يؤديوا الأداء الأمثل في سبعين بالمائة من مواقع الخدمات الطبية الحيوية فلا بد من أن تُشغل الثلاثون في المائة من المواقع الأخرى بالكفاءات التي ترتفع بها إلى ذات المستويات المأمولة ، وإذا كان الأطباء الأمريكيون غير قادرين إلا على خمسين في المائة فلا بد أن يتاح للخمسين في المائة الأخرى مَنْ هم أقدر عليها .

صحيح أن المجتمع الأمريكى يتمنى أن يتولى بنفسه مائة في المائة من المواقع بل ويعمل جاهداً على تحقيق هذا الهدف ، بل وتتيح له الإمكانيات الموجودة أن يفعل هذا ، بل وإحصاءاته قادرة على أن تقول هذا دون معارضة ، ولكن حقيقة العمل شئ آخر ، سأضرب لك مثلاً بمعمل للقسطرة يضم عشرين طبيباً أمريكياً قادرين تماماً على أداء مختلف أنواع القساطر بنجاح والتزام تامين ، ولكن هناك إلى جانبهم خمسة من الوافدين المتأمركين حديثاً يملكون قدرة على الإضافة إلى هذا المعمل بحيث يتفوق على معمل آخر ليس فيه هؤلاء الخمسة ، ربما تتوفر لهم قدرة أكثر على الابتكار ، أو التطوير ،

أوعلى الدراسات ، أو على توفير الوقت أو توفير الإجراءات والخطوات أياً كانت، بل وربما من وجهة نظر اقتصادية بحتة عندهم القدرة على توفير العملاء !! أى تمويل المعمل بالمرضى سواء من خارج أمريكا، أو من داخلها ، ربما تكون عندهم بحكم شخصياتهم قدرة على إيجاد سمعة لهذا المعمل فى الأوساط المحلية داخل أمريكا ، أو الدولية خارجها ، ربما تكون عند هؤلاء الرغبة الأكثر تأكيداً فى البقاء فى هذا الموقع لأكثر من عشر سنوات قادمة بينما الأمريكيون الأصليون ينتظرون الفرصة ساعة وراء ساعة للصعود إلى مواقع أكثر أهمية، أو أكثر ربحية ، سواء معامل أخرى أو مناطق أخرى أو رئاسات ، هذه هى بعض العوامل التى تحكم اتخاذ القرار بإدماج المتأمركين الجدد فى مواقع ممتازة ، ربما لايحلم بها الأمريكى حفيد الأمريكىين ، ولكن الأمريكى الذى يتخذ القرار يفعل كما يفعل أجداده الأمريكان من قبل حين كانوا ينسون مسألة الأبوين المصريين !!

وهذه هى روح أمريكا وإذا فقدت أمريكا هذه الروح فلن تكون هناك أمريكا، لن تكون أمريكا فى ذلك الوقت مشكلة نتحدث عنها فحسب ، وإنما سوف تكون عدماً ليس هناك من داع للحديث عنه .. إلا عن وجوده الذى سبق العدم .

ربما تستغرب منى ياسيدى هذه القسوة فى التعبير وتظنها شططاً للقلم ولكنها الحقيقة . تسألنى وأين تذهب قوة الدفع يوماً ؟ ألا تستطيع قوة الدفع هذه أن تنقذ أمريكا عشرين عاماً أو ثلاثين حتى تعود إلى رشدها؟ وتستأنف توظيف أجناس الأرض فى خدمة تقدم أمريكا؟ .. أقول لك لا . لن تستمر هذه القوة أبداً كما تظن .. لأن أمريكا فى تقدمها تطير ، تطلق بعيداً عن كل ما يخلد بالإنسان إلى الأرض حين يتبع هواه.. قوة الدفع هذه تنقذ السيارات أو المجتمعات التى تسير .. ولكنها لا تنقذ الطائرة أبداً !!

وتسألنى كيف يحدث ذلك ؟ أقول لك : هل رأيت الناس الذين يجيدون السباحة يتدافعون للقفز من القارب الموشك على الغرق فيعجل تدافعهم بفرق القارب .. تماماً هذا هو الوضع الحالى فى أمريكا ، إذا أحس ناجحوها أن الكيان الأمريكى افتقد روح الإمتياز والتميز ، وبات يخلد إلى الماضى بلا عمل ساعتهئذ سرعان ما سيتدافع هؤلاء الناجحون إلى ترك أمريكا تغرق بالمخلدين فيها.

لك أن تتصور أننى فى تفكيرى هذا شبيه بأديب محلق ، ولكن المجتمع الأمريكى نفسه يعرف معنى ما أقول ، ويراه بعينه كل يوم حين يجد الشركات والمؤسسات الفاشلة تغلق أبوابها وينتشر الذين كانوا فيها ليبدأوا " أمريكا " من جديد !!.

(٣)

شاهدت فى التلفزيون الأمريكى لقطات غير متتابعة (بسبب انشغالى عن متابعتها بعض الأيام) عن قضية أقامها بعض الموظفين الأمريكين ضد شركة يابانية كبيرة فصلتهم من عملهم بإجراءات قانونية سليمة فى الشكل طبعاً - يتهمونها فيها بالظلم والتحيز لليابانيين . تسألنى هل كانت الحلقات موجهة ؟ أقول لك : نعم .. ولكنها كانت موجهة ضد هؤلاء الأمريكان . أيما كان الأمر وانتصر المحامون لهذا الطرف أو ذاك فمن الواضح جداً أن الشركة كانت على حق .

لا شك أن الدفاع عن الأمريكين كان ممتازاً ، وقد استطاع محاميهم أن يخرج ممثل الشركة اليابانية مرة تلو مرة ، ولكن الحقيقة التى قدمها العمل الفنى كانت أن هؤلاء المفسولين يبتزون الشركة اليابانية . أنا لا أعلم كيف انتهى العمل الفنى على شاشة التلفزيون . ولا أعلم الهدف الذى كان وراء هذا

المسلسل ولا أعلم من الذى أنتج العمل . ولكنى أشهد لك شهادة لوجه الله أن كمية الصديق الفنى فى العمل كانت خير ما فى العمل كله .. ربما ترك العمل الفنى فى نفسك أنه ضد الأمريكيين .. ولكن الحقيقة التى لا بد أنك ستدركها بعد برهة قصيرة أن العمل الفنى كان يهدف إلى مصلحة الأمريكيين لأنه كان يوقظهم لا أقول من النوم ، ولكن من حلم بسيط من أحلام اليقظة المستمرة التى كاد انتباهها يضيع ، ولا أقول ضاع منها انتباهها .

وأعود لأتحرر على مسلسلات التلفزيون العربى وأقول .. « هكذا ينبغي أن يكون الفن » أو على الأقل .. هكذا ينبغي أن يكون بعض الفن! لى يبقى بعض آخر للإمتاع ، وبعض آخر للمؤانسة ، وبعض آخر للفن نفسه! .

أريد بعد كل هذا الحديث أن أنقل لك عبارة قرأتها الآن وبعد كتابة هذا الحديث بشهر أو أكثر تؤكد هذا المعنى ، الذى سوف أقوله : « إن أمريكا ليست لأحد » ، العبارة منسوبة إلى أحد قضاة محكمة الإستئناف فى كاليفورنيا واسمه " رينوسو " (Renoso) وهو أحد الذين تولوا وضع سياسة الهجرة إلى أمريكا ، وهو يتحدث فيها عن وحدة الشعب الأمريكى فيقول : « ما كان الأمريكيون اليوم .. وما كانوا فى أى يوم من الأيام أمة واحدة لغوياً أو عقائدياً .. إن أمريكا وحدة سياسية فحسب ، وليست وحدة ثقافية أو لغوية أو دينية أو قومية » .

(٤)

هل الأمريكيون مُرْفَهون أم مُرْفَهون ؟ هل يعمل الأمريكيون أكثر مما يستمتعون بحياتهم ؟ أم هم يستمتعون بحياتهم أكثر مما يعملون ؟ أم هم يوازنون بين المتعة والإجتهاد فى كفتى الميزان ؟ ربما يكون حكمى مجانباً الصواب لأنى سأحدث عن طائفة الأطباء وهى طائفة يصدق عليها الوصف

القائل إنها محترفةٌ عمل أو محترفةٌ عملاً في كل مكان سواء في أمريكا أو في مصر .. وحتى إذا تحدثت عن الممرضات أو السكرتيرات الطبييات فإنني أتحدث عن نفس المجال تقريباً ، فالعاملون في المهن الطبية الموازية أو المساعدة يكتسبون مع الوقت قسوة الأطباء على أنفسهم ، ولكني مع هذا كله وفي هذه النقطة بالذات أستطيع أن أقول لك إن المجتمع الأمريكي قد استطاع أن يجبر الأطباء على بعض الراحة .. تسألني كيف حدث هذا ؟ فأعطيك بعض الأمثلة لبعض الوسائل التي نفذ بها المجتمع سياسته غير المنظورة .

الوسيلة الأولى أن عطلة نهاية الأسبوع السبت والأحد مقدسة تماماً ، مع أن الطب لا يتوقف عن العمل كما هو معروف ولا بد من أن يكون من بين الأطباء نوبتجي في المستشفى .. وفي ظل أن العمل في عطلة نهاية الأسبوع إجباري ومحدد لكل طبيب كل عدة أسابيع فقد أصبح الأطباء بالتالي يستمتعون بالعطلات الأخرى المتاحة لهم ، أي أنهم أصبحوا يفقدون عطلة ليستمتعوا بثلاث عطلات .. بعد أن كانوا يرتبطون بالعمل ربع الوقت مثلاً أو عشر الوقت في نهايات الأسابيع .. وأحب في هذا المجال أن أضرب مثلاً بنفسى ، فلم يحدث أننى في حياتى عرفت نظاماً محدداً للراحة يوم الخميس والجمعة إلا في الشهور التسعة التى كنا فيها ثلاثة نواب فقط في قسم القلب بطب الزقازيق وكان على كل منا أن يتولى أمر الخميس والجمعة كل ثلاثة أسابيع... بالنسبة لى كنت أقضى عطلة في النوبتجية ، وعطلة في القاهرة الثقافية ... وعطلة ثالثة بعيدا عن القاهرة، وظللت منتظماً على هذا الحال طيلة تلك الشهور التسعة ، ولم أتمكن أبداً من أن أمضى على هذا النحو المنظم بعد ذلك ا.

عذراً نعود إلى الأمريكيين فنجد أن عمل الفريق يُجبرهم على العمل في أوقات محددة إذ ليس الفريق متاحاً في كل حين ، بل يصعب تماماً تشغيله في

غير أوقاته .. وهكذا أصبح على الأطباء الذين يمارسون تقنيات معينة أن يعرفوا أن الساعات الأربع والعشرين التى يعطيها الله لنا كل صباح ليست للعمل المتواصل ، وإنما هى لأشياء كثيرة منها العمل الذى تحدد وقته بالدقيقة من قبل لأنه مرتبط بفريق كامل .

الوسيلة الثانية التى استطاع بها المجتمع الأمريكى أن يبعد الأطباء عن العمل القاتل هى الخروج بالأطباء من أماكن عملهم من حين لآخر وبكثرة ربما تقول عنها إنها فاقت المعقول أو المطلوب . فالندوات دائماً فى الفنادق، والمؤتمرات الدورية دائماً فى أماكن متباعدة ، وكل عام تعقد جمعية القلب الأمريكية ندوتها فى مكان غير الذى عقدت فيه ندوتها السابقة ، والمؤتمر أسبوع كامل الاشتراك فيه شبه إجبارى وهذا لا يعنى أن جميع الأطباء يدفعون الاشتراك . والأطباء فيه متوقفون عن العمل فى مستشفياتهم إلا لحالات الطوارئ التى يقوم بها حوالى ١٠٪ فقط من القوة البشرية المتاحة.. وكلية أطباء القلب هى الأخرى لها أسبوع آخر ، ربما أنتهز هذه الفرصة الآن لأحدثك عن النشاط العلمى المفروض على أطباء القلب ولعلك لاحظت فى الفقرة السابقة أن هناك جمعيتين علميتين : جمعية أطباء القلب الأمريكيتين والكلية الأمريكية لأطباء القلب. هذا غير جمعيات ضغط الدم ، واختلال النظم ، والفسيولوجيا الكهربائية ، والمهميزات والموجات فوق الصوتية والتصوير الصبغى ، والرنين المغناطيسى ... الخ (الخ) فإذا كان الطبيب مهتماً بمجالين فقط من هذه المجالات العشرة إلى حد أنه يشارك فى اجتماعاتها ومؤتمراتها فإنه مجبر على أن يترك العمل الروتينى إلى أماكن بعيدة عن بيته وعن مستشفاه لأربعة أسابيع على الأقل كل عام .

ولكنى مع هذا أعتقد أن هناك من الوسائل ما هو قادر فى المستقبل على أن يمنع الأطباء من قتل أنفسهم ، أعتقد مثلاً أن ثقافة الأبناء فى الأجيال الجديدة

كفيلة يجذب آبائهم معهم إلى المتاحف والأوبرا والمسرح والسينما حينما يزداد رقى هذه الفنون و ابتعادها عن التكرار وحرصها على الفن الرفيع والتجديد والإبتكار حتى تحتفظ لنفسها بمكان في عصر الفيديو والكمبيوتر، أحب أن أقول إن الأجيال الجديدة محظوظة تماماً أو سوف تكون كذلك بعد ضياع الأجيال التي مرت بالبشرية طيلة النصف الثاني من القرن العشرين .. وأحب أن أسجل من الآن ما بدأت ألاحظه تحت الرماد من أن هذه الأجيال سوف تكون قادرة على توجيه الأجيال السابقة عليها إلى كثير من أنماط السعادة والرقى . اعتقد كذلك أن التطوير الرائد في مناهج الدراسة والتزايد المستمر في إقبال المهنيين والمشتغلين بالعلوم المختلفة على الإنسانيات سوف يُفسح المجال لإنسان أكثر رقياً. وبالتالي لطبيب أكثر إنسانية مع نفسه . واعتقد أن وسائل الإعلام جميعاً ستفقد مع الزمن الحمى التي تفرض عليها السطحية والإشارة وستكون في المستقبل حريصة على الهدوء والرؤية والتعمق وسوف يتأثر بها الناس أيضاً . و اعتقد أيضاً أن الحاجة الملحة إلى كثير من الإنفاق وكثير من العمل من أجل تدعيم وتوسيع قواعد الأصول الثابتة في المؤسسات الصحية والطبية على مستوى القطاعين الجماعى والفردى - اعتقد أن هذه الحاجة سوف تخف بعض الشيء بما سوف يكون متاحاً ومتراكماً من أصول ثابتة ضخمة أنفق القرن العشرين معظم أرباحه على بنائها أو تسديد ديونها .

(٥)

أحب أن أحدثك بعد هذا كله عن ثراء الأمريكيين . هل زاد ثراؤهم أم أنهم كما يحب الناس في بلدى أن يتصوروهم بدأوا يعانون المعاناة التي تنتهي (بعد عمر طويل) بالفقر .

لو كنت زرت أمريكا في ١٩٥١ أو ١٩٦١ أو ١٩٧١ أو ١٩٨١ ثم زرتها في ١٩٩١ فسوف تحس أن أمريكا أصبحت حذرة في إنفاقها ، وأصبحت تشكو بصوت مرتفع من أنها لا يجب أن تنفق على هذا البند مثلاً كل هذا الإنفاق ، أو أن التأمين الصحى غير قادر على تغطية نفقات علاج ٣٨ مليون أمريكى، أو أن معظم نفقات الإدارة الأمريكية يمكن اختصارها احتياطاً للمستقبل .. لن تنجو من أن تطالع هذه الأفكار صباح مساء كل يوم في كل جريدة وكل تقرير تطلع عليه ، ولن تنجو أيضاً من سماع هذه العبارات في دردشتك مع الأمريكان أينما كانوا ، ومع كل هذا تتأمل ثروة الأمريكى فتراها تزداد يوماً بعد يوم ، وتتضخم ، ترتفع الودائع في بنوكهم كما لم يسبق لها أن ترتفع ، وأصولهم الثابتة تتضاعف بما لا يحتاج إلى إحصاء ، وأكثر من هذا فإن الدولار أصبح يمثل بالنسبة للاقتصاد العالمى أكبر بكثير مما كان يمثل فيما مضى ، ولك أن تقارن بين سعر الدولار اليوم بالنسبة لى عملة ، وبالنسبة لذات العملة منذ عشر سنوات فإذا أنت تجد الدولار هو الرابع .. وحتى في الأحوال القليلة التى ينهار فيها الدولار أمام عملة أخرى فإن الدولار وأصحاب الدولار يفعلون هذا من أجل عيون الدولار .. يغرون أثرياء منطقة ما حتى يحولوا أموالهم إلى الدولارات بما يقدمون عليه من رفع سعر الفائدة وما إلى ذلك من المغريات ، ويدعمون الدولار حتى لا يكف عن الارتفاع حتى إذا وصلوا إلى نقطة ما لا يعرفها سوى خالقهم هبطوا به فجأة فهبطوا بكل قيم الأشياء التى تحولت إلى دولار ، وهم المستفيدون فقط .. لأنهم حصلوا على كل ما يريدون بالدولار العالى .. ثم أصبح الدولار في أيدي الناس من حولهم رخيصاً !!! غاية ما أريد أن أقوله لك هو أن الأمريكان أصبحوا اليوم أكثر وعياً في إنفاقهم مما كانوا عليه من ذى قبل .. أريد أن أقول لك ذلك حتى أصبح لك ما قد يترامى إلى ظنك من أنهم أصبحوا أقل ثروة عما كانوا عليه من قبل !!!

(٦)

دعنى الآن أحديثك عن كتاب شقيق أتيتح لى أن أطلعه هذا الأسبوع ولكن لا بأس أن أخص لك الفكرة التى فيه . الكتاب اسمه :— (الأجيال . تاريخ مستقبل أمريكا » ١٥٨٤ — ٢٠٦٩) Generations : The History of America's Future (1584 - 2069) المؤلفان هما شتراوس (٤٤ عاماً)— ونيل هوى (٣٩ عاماً) والكتاب صدر عن دار نشر Morrow ويبيع بحوالى ثلاثة وعشرين دولاراً ، وتخلص الفكرة التى عمد إليها المؤلفان أنهم قسموا أجيال أمريكا إلى ثمانية عشر جيلاً وذلك بأن جعلوا الجيل الواحد ٢٢ عاماً — (معلوماتى السابقة أن بعض علماء الاجتماع اعتمدوا ٣٣ عاماً فى المتوسط بحيث يصبح القرن ممثلاً لثلاثة أجيال) ، ولم يصنفوا الناس حسب انجازاتهم وتواريخها ، ولكنهم أخذوا الزعماء والبارزين بتواريخ ميلادهم — هل تعرف ماذا يعنى هذا ؟ أبسط لك الأمور وأضرب لك بمصر مثلاً كنت كثيراً ما استعمله لإثارة لحاحات المقارنة الصحيحة فى حديثى السياسى مع بعض من تحدثت إليهم ، ولا أذكر إن كنت قد سجلت هذه الفكرة فى مقال أو كتاب لى من قبل أم لا ، كنت أقول إن مصر حُكمت طيلة الفترة من ١٩٣٦ وحتى ١٩٨١ (حوالى نصف قرن) بثلاثة من مواليد ثلاث سنوات متتالية — فقد ولد الملك فاروق فى ١٩٢٠ ، وولد عبد الناصر فى ١٩١٨ ، وولد أنور السادات فى ١٩١٩ (فى بعض الأقوال فى ١٩١٨) كنت أورد هذا القول فى التدليل على عدة معان : أولاً : أن رجال الثورة لم يكونوا صغار السن حين تولوا الحكم فقد سبقهم إليه ومنذ ١٥ عاماً ملك أصغر منهم فى السن كان فى كثير من الأحوال حريص على أن يحكم لأنه يملك ثانياً : إن الحكمة الزائدة التى تميز بها أنور السادات كانت تعتمد ضمن ماتعمد على عامل السن إذا ما قورن بعبد الناصر أو بفارق السن (مع عدم إغفال الجوانب الشخصية فى كل منهم جميعاً) ما علينا من هذا الاستطراد الذى يجب أن أعتذر عنه وهأنذا أعتذر!!

شترأوس و هوى ياسيدى يذهبون إلى أبعد مما أذهب بكثير جداً ، إنهم يقسمون الأمريكان منذ ١٥٨٤ وحتى أوائل القرن الحادى والعشرين إلى ثمانية عشر جيلاً لكل جيل ميزة واسماً مميزاً ويأخذون لكل جيل شخصاً من المشاهير الذين ولدوا فى الفترة الزمنية التى حددوها للجيل ليجعلونه «العينة» - عينة الجيل - إلى هنا والأمر بسيط أو قل إنه بسيط.

لكن شترأوس و هوى ينظران إلى الأمور من زاوية أخرى هى زاوية ما نقول عنه الدورات - أو ما قاله مؤرخ عظيم ملخصاً فلسفته فى التاريخ - من أن التاريخ يعيد نفسه . و هكذا فإن المؤلفين يضعان كل أربعة أجيال فى دورة وتتعاقب الدورات - فالدورة الواحدة على هذا تضم أربعة أجيال : الأول هو جيل المثاليين ثم يليهم جيل الفاعلين ويليهم جيل المدنيين وتنتهى الدورة بجيل المتأقلمين لتبدأ بعد ذلك دورة جديدة تبدأ بالمثاليين ثم الفاعلين ثم المدنيين ثم المتأقلمين .. دعنى أخص لك الدورات والأجيال وصفات الأجيال وعينات هذه الأجيال خلال الصفحتين الآتيتين :

الدورة الأولى: المستعمرون Colonial ولك أن ترجمها بالاستعماريين، أو سكان المستعمرات والدورة الثانية دورة الثورة ، والدورة الثالثة دورة الحرب الأهلية ، والدورة الرابعة دورة القوة العظمى والدورة الخامسة هى الدورة التى نعيشها الآن !!

فلنبدأ بالدورة الأولى ، فى هذه الدورة وهى التى تضم بالطبع أربعة أجيال الجيل الأول هو جيل البيوريثان Puritan والبيوريثان كما نعلم هم القوم الحريصون على التطهر من كل الأدران والخطايا إلى حد التزمّت ، وفى الأدب العالمى نقرأ هذه العبارة فى وصف بعض مجتمعات أو أشخاص العصور الوسطى - هؤلاء بالطبع مثاليون - وهم بداية الدورة وهؤلاء يمثلون مواليد الفترة من (١٥٨٤ - ١٦١٤) وعينة هؤلاء : جون ونتروب .

الجيل الثانى (١٦١٥ - ١٦٤٧) جيل الفرسان Cavalier هؤلاء بالطبع وكما يتضح حتى من تسميتهم فاعلون إيجابيون - وعينة هؤلاء هو انكريز ماذر وسوف أحدثك عنه بعد قليل .

الجيل الثالث (١٦٤٨ - ١٦٧٣) جيل المتألقين Glorious هؤلاء بالطبع وكما يتضح من اسم جيلهم يمثلون المرحلة الثالثة من الدورة الأولى ، وصفتهم بالطبع أنهم مدنيون ، وعينة هؤلاء هو كوتون ماذر وهو ابن انكريز وسوف أحدثك عنه وعن أبيه وجده بعد قليل . والجيل الرابع (١٦٧٤ - ١٧٠٠) هو جيل التنوير Enlightenment وهم قوم متأقلمون يمثلهم وليام شيرى .

دعنى أحدثك عن أقطاب هذه الدورة الأولى وسأبدأ بالحديث عن العائلة التى تضم قطبين هما قطبا الجيلين الثانى والثالث فى الدورة الأولى . عائلة ماذر هذه تمثل عصرأ كان فيه رعاة الكنيسة فى مساتشوستس هم القادة فى الحياة العامة والعقلية . أما ريتشارد ماذر (١٥٩٦ - ١٦٦٩) فقد ولد فى لانشستر بإنجلترا وتعلم فى أكسفورد، وسببت له أفكاره البيورتانية مصاعب مع الكنيسة الإنجليزية مما أبعده عن تولى المسئولية ، وقد ترك إنجلترا فى ١٦٣٥ وبدأ حياة جديدة فى مساتشوستس ومنذ ١٦٣٦ وحتى وفاته ظل راعيا للكنيسة الطاقية أو الإبراشية Congregational فى دورشستر وهو الذى ألف كتاب المزامير الذى يسمى Bay Psalm book . وأما انكريز ماذر الذى اختاره المؤلفان عينة للجيل الثانى (١٦٣٩ - ١٧٢٣) فهو ابنه - وقد عمل راعياً لكنيسة بوسطن الشمالية (أو الثانية) منذ ١٦٦٤ وحتى وفاته ، وكانت له محاولات مشهورة جعلته بمثابة العدو الأول لأى نوع من التحديث فى نظام نيو انجلند كنيسة أو حكومة ، وقد عارض بقوة أولئك الذين أرادوا تحديث

نظام الكنيسة أو قوانين التطهر وقضى ماذر أربعة أعوام في لندن فيما بين ١٦٨٨ و ١٦٩٢ عند وليام الثالث حتى حصل منه على موافقة بتوحيد بليموث ومساتشوستس . وعمل ماذر مديراً لجامعة هارفارد فيما بين ١٦٨٥ و ١٧٠١ وكان قريباً من الباحثين والعلماء على الرغم من تحفظه الدينى والسياسى، وساند من موقعه كمدير للجامعة حملة التطعيم ضد الجدري ، وكان هذا بالطبع موقفاً غريباً من رجل دين على مثل مذهبه، يهمنى أن أذكر لك أن انكريز ماذر ولد حقيقة في دورشستر لأن أباه كان فيها منذ ١٦٢٥ كما ذكرت لك في الفقرة السابقة. ولكن انكريز ماذر درس في هارفارد كما درس في كلية ترينيتي في دبلن ، وقضى سنوات طويلة من حياته مبشراً في الجزر البريطانية .

أما كوتون ماذر الذى اختاره المؤلفان عينة للجيل الثالث فهو ابن انكريز وحفيد ريتشارد وقد رُسم كاهناً في ١٦٨٥ ، وقد أصبح بذلك مساعداً أو مشاركاً لوالده في كنيسة بوسطن الشمالية ، وتولى منصب راعي الكنيسة حين سافر والده إلى لندن كما ذكرنا .. ثم تولى مسئولية الكنيسة بعد وفاة والده . وقد ألف كوتون ماذر هذا ما لا يقل عن ٤٥٠ كتاباً وقد تأثر بنيامين فرانكلين بأحد كتبه وهو كتاب Essays to do God الذى ألفه ١٧١٠ ، وكان كوتون كوالده صديقاً للعلم والتعليم ساعد في إنشاء كلية بل وكان أول أمريكي ينتخب زميلاً للجمعية الملكية في لندن ، ومثل هذا الشرف يعطيك فكرة عن هذا التالى الذى يمثله كوتون ماذر الذى ترى صورته في القواميس والموسوعات الأمريكية معبرة تماماً عن هذا التالى . هذا وقد ولد كوتون في بوسطن.

بقى أن أحدثك عن وليام شيرى ، وقد ولد ١٦٩٤ في إنجلترا وتوفى عام ١٧٧١ ، وقد عمل كحاكم للمستعمرة مساتشوستس فيما بين ١٧٤١

و١٧٦٥، وتولى لفترة قصيرة قيادة القوات البريطانية في شمال أمريكا . كان مسئولاً عن الاستيلاء على لويـزبورج في ١٧٤٥ في أثناء الحرب الفرنسية الهندية وعندما ضمت إنجلترا مساتشوستس إلى جانبها في الحرب استطاع شيرلي تحرير النظام النقدي وإصلاحه . وقد تولى حكم جزر الباهاما فيما بين ١٧٦١ و ١٧٦٧ .

دعنا نتحرك إلى الدورة الثانية دورة الثورة Revolutionary وفي هذه الدورة هي الأخرى أربعة أجيال .

الجيل الأول جيل اليقظة أو الصحوة Awakening (١٧٠١ - ١٧٢٣) وعينة هذا الجيل الرجل العظيم بنيامين فرانكلين الذي لا شك أنك تعرفه ، وهذا الجيل بالطبع جيل مثالي .

الجيل الثاني جيل الحرية Liberty (١٧٢٤ - ١٧٤١) وعينة هذا الجيل هو الرجل العظيم جورج واشنطن الذي لا شك أيضا في أنك تعرفه ، وهذا الجيل بالطبع جيل فاعل .

الجيل الثالث جيل الجمهوريين Republican (١٧٤٢ - ١٧٦٦) وعينة هذا الجيل هو الرجل العظيم توماس جيفرسون ، وهذا الجيل بالطبع جيل مدنى، يؤسس دولة ومؤسساتها .

الجيل الرابع جيل التوفيق Compromise وهؤلاء ولدوا فيما بين (١٦٦٧ - ١٦٩١) ويمثلهم أندور جاكسون - وهؤلاء الموفقون بالطبع قوم متأقلمون .

استطيع أن أؤكد لك الآن ياسيدى القارئ أنك قد بدأت تتفهم فلسفة المؤلفين في هذا الكتاب — ربما لأن معرفتك بهؤلاء الرجال الذين يمثلون عينة الدورة الثانية — دورة الثورة تفوق بالطبع معرفتنا ومعرفة كل الناس بالدورة

الأولى حيث كانت أمريكا لا تزال في ظلام المستعمرات أو تحت تأثير ضبابها الذي لم ينقش بعد .

دعنا نمضى مع المؤلفين مع جيل الدورة الثالثة دورة الحرب الأهلية Civil War هذه الدورة ياسيدى تضم ٣ أجيال فقط ، فليس في دورة الحرب وقت للمدنيين ، أقصد — بل يقصد المؤلفان — أن أحداً من الذين ولدوا في أثناء الحرب لن يكون مدنياً .

الجيل الأول (١٧٩٢ - ١٨٢١) جيل ماوراء الماديات هكذا أفهم قصده من تسمية هذا الجيل بجيل Transcendental ربما جاءنى الفهم من عينة هذا الجيل وهو الرجل المحب إلى قلبى إبراهيم لنكون الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية (١٨٦١ - ١٨٦٥) هذا الجيل بالطبع جيل مثالى .

الجيل الثانى وهو جيل فاعل حسب تطور الدورة هو مواليد الفترة من (١٨٢٢-١٨٤٢) وعينتهم هو أولرسيز جرانت وهو جيل المذهبين Gilded وجرانت هو الرئيس الثامن عشر للولايات المتحدة الأمريكية ، ولد ١٨٢٢ وتوفى ١٨٨٥ وتولى الرئاسة فيما بين ١٨٦٩ - ١٨٧٧ وهو من مواليد أوهايو وهو الذى قاد قوات الحلفاء إلى النصر فى ميسورى عام ١٨٦٦ وعين قائداً أعلى للقوات الأمريكية فى ١٨٦٤ ثم سرداراً للقوات الفيدرالية تحت قيادة لى فى ١٨٦٥ ثم انتخب رئيساً لدورتين رئاسيتين وأخفق فى الترشيح للثالثة وقد جاءته السياسة من باب النجاح العسكرى الذى حققه ، وقد تكونت شخصيته بفضل العزم والدقة والثقة والقدرة على التعلم من التجارب ولكن المعيته العسكرية لم تكن قادرة على حل مشاكل الأمة .. هكذا يقول الأمريكان عن قائدهم فى ١٨٧٠ قبل أن يقول البريطانيون عن تشرشل فى ١٨٤٧ نفس

الكلام، وأعداؤه يقولون عنه إنه رئيس ضعيف ويكاد المؤرخون يوافقونهم على ذلك .

الجيل الثالث والأخير في هذه الدورة (١٨٤٣ — ١٨٥٩) وهو جيل التقدميين Progressive جيل متأقلم ويمثل هؤلاء الرئيس تيودور روزفلت.

تبدأ بعد هذا كله الدورة الرابعة دورة القوى العظمى . وأول أجيالها (١٨٦٠ — ١٨٨٢) هو جيل المبشرين أو رجال الإرساليات — وهم مثاليون [حسب تقسيم المؤلفين] ويمثل هؤلاء فرانكلين روزفلت . ثانی أجيال هذه الدورة (١٨٨٣ — ١٩٠٠) يطلق عليهم المؤلف تسمية الجيل الضال أو الضائع Lost — وهم فاعلون — ويمثل هؤلاء دوايت أيزنهاور . ثالث أجيال هذه الدورة (١٩٠١ — ١٩٢٤) جيل مدنى — وهذا هو الجيل الذى نعرف كثيراً من شخصياته — بل إن من هذا الجيل الرئيس الأمريكى الحالى بوش، ومنه أيضاً معظم الرؤساء الأمريكيين الذين عرفناهم فى السنوات الماضية ، عينة هذا الجيل عند المؤلف هو الرئيس العظيم جون كنىدى . رابع أجيال هذه الدورة (١٩٢٥ — ١٩٤٢) جيل متأقلم — ويسميه المؤلف جيل الصمت — ويأخذ عليه مثلاً والتر مونديل ، نائب الرئيس الأمريكى الذى تراه أنت وكل العالم اليوم يحظى بإنتقاد الأمريكيين لأنه لا يفعل شيئاً ..

أما الدورة الخامسة فأول أجيالها هو جيل الازدهار Boom (١٩٤٣ — ١٩٦٠) وهو جيل مثالى عينته عند المؤلف هو نويت جنجريش .

ثانى أجيالها هو الجيل الثالث عشر Thirteenth لم يسمه حتى الآن إلا بهذا الاسم وهم مواليد (١٩٦١ — ١٩٨١) ومن المفترض أن يكونوا فاعلين. ويأخذ عليهم مثلاً توم كروز وهو فنان أمريكى ناشئ محبوب إلى قلوب الأمريكيين .

ثالث أجيال هذه الدورة هم مواليد (١٩٨٢ - ٢٠٠٣) من المفترض أن يكونوا مدنيين — والمؤلفان يعجزان عن تسمية هذا الجيل فيأخذان له اسم الدورة نفسها . وآخر الأجيال هو الجيل الذى لم يولد منه أحد بعد (٢٠٠٣ - ٢٠٠٠) ليس له اسم بعد . وليست له صفة وليست له عينة !!.

هل قصدت من استعراضى معك لهذه الدراسة كلها على هذا النحو أن أبين لك أن الأمريكين ليسوا المثاليين فحسب ، وليسوا الفاعلين فحسب ، وليسوا المتأقلين فحسب ، وليسوا المدنيين فحسب ولكنهم مزيج من تعاقب كل هذا من لدن مولدهم وإلى حين تبرز صفاتهم في أعمالهم الجماعية فتصبغ الأجيال والحقب الزمنية بما نراه واضحاً ومؤثراً في التاريخ المعاصر . وعلى أية حال فإن هذه الدراسة نموذج للدراسات التى تتناول التاريخ الاجتماعى من منظور يحاول أن يفهم تعاقب الحوادث في ضوء فلسفة قد تخطيء وقد تصيب ولكنها تجيب عن سؤال لماذا حدث وكيف حدث بطريقة تهيب الأذهان لقراءة تاريخ المستقبل .

وتاريخ المستقبل شىء مهم جداً ، رغم أنى من أشد المقتنعين بأنه من المستحيل أن يمضى الزمن بطريقة خطية (Linear) فنفترض مثلاً زيادة في الدخل إلى ١٢١٪ في العام القادم إذا كان العام الماضى قد حقق في نفس الظروف الزيادة إلى ١٠٪ . نعم أنا من أشد المعارضين لمثل هذا التفكير الخطى ولكنى مع ذلك من أكثر المحبذين لاستعماله لبناء إطار أولى - وخط تمهيدى فحسب . نعم لن يصدق ولكن لا بد من وجود معيار نقيس به قيمة نفترض وجودها حتى إذا كنا متأكدين تماماً من أنها لن تكون هكذا .. لأن هذا عندى أفضل من العدم ! .

(٧)

أحب أن أحدثك الآن بشىء من التفصيل أو الإيجاز لا أدري ، عن حياة

الأمريكيين اليومية اليوم!! ربما أبداً بالإسكان وخاصة إذا كان المؤلف من بلد لا يعانى من شيء مثل معاناته من الإسكان!! سنتحدث كثيراً بالأكبر ، فلا بد لك من أن تعرف كم يساوى الأكر ACRE الأكر ياسيدى مقياس مساحة وهو يساوى ٤٣,٥٦٠ قدماً مربعاً أو ٤٨٤٠ ياردة مربعة أو ١٦٠ عموداً rods مربعاً ، والأكر ياسيدى مربع الشكل كل ضلع من أضلاعه يساوى ٢٠٨,٧ قدماً . وفى النظام المترى الذى نعرفه جميعاً ياسيدى الأكر يساوى ٤٠٤٧ متراً مربعاً . [تذكر أن الفدان يساوى ٤٢٠٠ متراً مربعاً تقريباً] أى أن الأكر يمثل ٩٦,٣ ٪ من الفدان تقريباً وفى هذا النظام فلن الهكتار يساوى ٢,٤٧١ أكر . وفى الموسوعة التى رجعت إليها لأنقل عنها هذه المعلومات - وهى موسوعة كتاب العالم - الناشر Field Enterprises Educational Corporation شيكاغو . فى هذه الموسوعة رسم توضيحي يبين لك كم يساوى الأكر بمساحة البيوت المقسمة (البلوكات) فى أمريكا .. وأنت ترى فى هذا الرسم أن الأكر يساوى المساحة التى يحتلها سبعة بلوكات كل منها ٥٠ قدماً × ١٢٥ قدماً . ساقرب لك المسألة بالنظام المصرى (المترى) . تصور بيوتنا متلاصقة من اليمين والشمال على صف واحد لكل بيت منها واجهة طولها ١٥ متراً وتمتد هذه البيوت متوازية جميعاً فى العمق بطول ٣٧,٥ متراً إذن فكل بيت من هذه البيوت مساحته ٥٦٠ متراً تقريباً الأكر ياسيدى هو سبعة من هذه البيوت الضخمة الفخمة .

تصور أننا أخذنا كل بلوك من البلوكات فقسمناه قطعتين (على طريقة رأس البر مثلاً) كل قطعة ٢٨٠ متراً إذن هذه المساحة على طريقة الإسكان الإقتصادى تكفى ٣ شقق (أحيانا ٤ ونادراً ٢) ومثل هذه البيوت الأربعة عشر تكون مع بعضها أكر واحد .

تعال نتأمل حال الأرض الزراعية في مصر تتحول إلى أرض مبانى أنت تعرف أن الفدان ٢٤ قيراط - الأكر يساوى على أقل تقدير ومع الإكرام الواجب لك - ٢٣ قيراط ، وعادة فإن الفدان يمكنه أن يهيىء أرضاً لإقامة ٢٤ بيتاً أو ١٦ بيتاً من مستوى أرفع . قل أن الأكر يهيىء ٢٣ بيتاً أو ١٥ بيتاً من مستوى أرفع وقارن ذلك ببيوت الأمريكان التى أحدثك عنها الآن . خذ مثلاً ياسيدى هذا البيت الصغير الذى أسكنه - طابقه العلوى ثلاث حجرات نوم فقط وحمام . في طابقه الأول حجرة استقبال وحجرتا نوم ومطبخ وحمام . هذا البيت ياسيدى يتمتع بأرض واجهتها خمسون قدماً على شارع رئيسى وله في العمق أقصد لأرضه في العمق ٢٢٥ قدماً . إذن فهذا البيت يملك من الأرض ٥٠ × ٢٢٥ قدماً وهو ما يزيد عن ربع فدان !! هذا الربع فدان في ريف مصر كاف لإقامة ستة بيوت على الأقل فيها من الحجرات أكثر بكثير مما في بيوت الأمريكان .

أظننى الآن قد وصلت معك إلى تصور قائم على المقارنة ، ولعل صورة هذه البيوت الجميلة المنتشرة على المساحات الخضراء الممتدة قد اتضحت أمام ناظريك الآن . كل بيت يطل على الجهات الأربعة . أمامه الشارع الذى يأخذ منه رقمه ، ووراءه مائتاً قدم على الأقل منها مائة قدم يمتلكها فضاء تتصل بمائة قدم فضاء أخرى هى التى تمثل عمق البيت المناظر المطل على الشارع التالى . وعن يمين وعن شمال فضاء مرصوف بعضه لتمر منه السيارات إلى الجراج خلف المنزل ، هذه هى البيوت ياسيدى . ليس هناك بيت في مدينة مرتفعات كليفلاند كلها شذء عن القاعدة وارتفع أكثر من دورين ، إنما كل البيوت حريصة على نفسها لم تصبها حمى الهدم والأسمنت المسلح التى تجتاح مصر فيما يشبه الوباء الذى يستعذبه المصابون به . ويظنون ارتفاع درجة الحرارة المصاحب للحمى نوعاً من التدفئة المركزية غير مدفوعة الأجر .

وكل هذه المنطقة ياسيدى مسماة بأسماء إنجليزية . لى ، كنجستون ،
فيرمونت ، فايرهل ، تايلور ، كوينستون ، برنستون ، شارلستون ،
مارلبورو، نورثن بارك ... إلخ .

(٨)

والناس يسكنون بيوتهم .. لكل بيت ، ولكل بيتٍ صاحبه ، وهكذا الحال
فى سبعين فى المائة من مساكن الأمريكين .. وتتبقى بعد ذلك ثلاثون فى المائة
من المساكن للمواطنين الذين لا تمكنهم ظروفهم من بناء المساكن أو إلى
اقتنائها إلا بعد حين .. حين يتاح لهم الدخل أو حين تتاح لهم الأسرة التى
تستلزم مسكناً .. أو حين يتاح لهم الاستقرار .

أحب أن أستأنف هذا الحديث عن بعض جوانب الحياة اليومية فى الولايات
المحدة الأمريكية لكى تتأمل بنفسك هذه الجنة أو هذا الجحيم . أنت تعرف
مثلاً أن الحياة هنا قامت على مبدأ الاعتماد على السيارات الخاصة . وحين كنا
لا نزال دون العاشرة كنا (أنا وأخى أحمد) نستمع بشوق إلى أى صديق
للعائلة عاد من أمريكا فكان أول ما يحكيه هو أنه لا أحد هناك إلا ويمتلك
سيارة . حتى إن كل العاملين فى فرن الخبز يركبون سيارات من ذوات الأبواب
الستة .. لهذا فليس غريباً عليك أنك ترى السيارات وكثرتها اللامتناهية هنا
ولكنك مع هذا تجد الاتوبيسات العامة على فخامتها وجمالها وتكيفها قليلة
العدد . متباعدة الزمن فى مرورها عليك .. وعلى سبيل المثال فإن عودتى من
المستشفى إلى البيت فى الأسبوع الأول كانت تستغرق ربع ساعة بالتاكسى
ولكنها تستغرق ما لا يقل عن الساعة بالاتوبيس رغم أننا نسلك نفس
الشوارع بلا اختصار على الإطلاق . ذلك أننا فى الاتوبيس ننقل ما بين
أتوبيسين أولهما ينقلنا إلى ميدان واسع فسيح ، ولكنه بلا حياة على الإطلاق ،

وهو ميدان دائرة الجامعة ، أو حلقة الجامعة . ثم تنتظر قرابة نصف ساعة حتى يأتى أتوبيس آخر .. هذا إذا عدنا بعد الساعة الثالثة .. أما إذا عدنا قبل الساعة الثالثة (وهو ما لم يحدث) فإننا نكون حينئذ معرضين لانتظار الأتوبيس الثانى قرابة ساعة !! لأنه فيما قبل الثالثة لا يأتى إلا كل ساعة .

لعل أسوأ ما فى الأتوبيس هو ذلك الوقت الطويل الذى تنتظره فيه بين مجموعة قليلة من البشر لا تبعث أبداً إلا على الخوف ، بل والرعب ، هل تستأهل المسألة هذا الرعب .. أم أننا من كثرة ما حذرنا (حتى ونحن لا نزال فى أقطارنا) من هؤلاء الأمريكين أصبحنا نخشاهم بأكثر من اللازم ، ونخشاهم جميعاً الصالح والطالح .. نعم ياسيدى ربما يكون رأيك أننى أبالغ فى قولى أن هؤلاء لا يبعثون على الاطمئنان أبداً . ألا ترى هذه الملابس التى لاتدل إلا على أنهم خرجوا فى سرعة متناهية حين علموا بوجود الضحية (الذى هو أنا مثلاً) حتى يقتلوه ويسلخوه ويعودون بجلده وكل ما فى جلدته .. انظر إلى هذه الوجوه ، هل تتوقع من هذه الوجوه أن تستجيب لرجاءك حين تصبح ضحية فى أيديهم .. والجا إلى الله أن يزيل عنى الخوف . ولكن أليس من حقى على نفسى أو من حق نفسى على ألا أرمى بها إلى التهلكة؟ هكذا تتدافع مشاعر الخوف والاطمئنان حتى يأتى الأتوبيس والأتوبيس لا يأتى .. اللهم ارحمنا برحمتك من أنفسنا .. ومن عبادك.

هذه هى أتوبيسات هيئة RTA أى هيئة النقل السريع أو ما يناظر هيئة النقل العام بالقاهرة أو الإسكندرية أو مرفق النقل الداخلى بالقازيق قد أكون راغباً فى أن أحدثك كثيراً بشيء (لا يخلو فى نظرك) من التعامل على هذه الأتوبيسات وكيف أن نظام النقل الداخلى فى أمريكا لا يرقى إلى أوروبا بعد أن حدثت عن اتساع الفجوة الزمنية بين كل أتوبيس والتالى له . وربما لم أعبر لك تماماً عن مدى الرعب الذى يعترينى فى زيارتى السابقة لأمريكا أو فى هذه الزيارة حين أقف فى محطة من محطات الأتوبيس ربما وحيداً تماماً وربما

محاطاً بأحد الزوج أو بعضهم يأتون بحركات لا تبعث إلا على الرعب وقراءة الشهاداتين قبل أن تلقى حتفك .. ربما يكون السبب في كل ذلك أنى مُقِل إلى أبعد الحدود في ركوب هذه الأتوبيسات هذه المرة والمرة السابقة ولهذا فلك أن تأخذنى على أننى صاحب انطباعات ولست صاحب خبرة أو رأى .

ولكننى اليوم فقط بدأت أدرى كم تتكلف الخزانة الأمريكية من أجل بقاء هذه الأتوبيسات في خدمة الطوائف التى تضطر إليها .. نعم كنت اتحدث إليك فيما مضى من فقرات عن أن الاعتماد هنا على السيارات الخاصة ولكنى لم أستطع توضيح الصورة الحقيقية التى لمستها اليوم وهانذا أفعل كى أكون أميناً على الصورة . ركبت الأتوبيس من محطة ميدان الجامعة أو حلقة الجامعة (حسب الترجمة الحرفية) ، كانت معى تذكرة من النوع الترانزيت أى التى أركب بها أتوبيسين متعاقبين وهى لا تكلفنى إلا دولاراً واحداً هو كما تعلم لا يسمن ولا يفنى من جوع فى أمريكا . ركب معى الأتوبيس شخص آخر . نحن الآن فى أول محطة لهذا الأتوبيس الذى يبدأ فى ميدان الجامعة وينتهى فى البيتش وود.

أنت تعلم من فقرة سابقة أنه فيما قبل الساعة الثالثة لا يأتى هذا الأتوبيس إلا كل ساعة مرة. وبعد الساعة الثالثة يأتى كل نصف ساعة .. وتزداد هذه الفجوة أيام السبت والأحد .. ولا يعمل هذا الأتوبيس بعد الساعة السابعة مساء .. أى أنك لن تجده لا فى الثامنة ولا فى التاسعة ... إلخ . تماماً كأتوبيسات الأقاليم فى مصر منذ عشرين عاماً وربما أكثر من عشرين عاماً وفى أيام الأحاد لا تعمل معظم الأتوبيسات وفى أيام السبت تنتهى دورتها فى حوالى الخامسة وثمان وثلاثين دقيقة !!

تسألنى كيف سار هذا الأتوبيس فى تلك الرحلة . سأحكى لك بالتفصيل الممل ، فقد انتظر الأتوبيس حوالى ٧ دقائق فى محطة البداية فلم يركبه أحد

بعدنا . بعدنا هذه تعينى أنا وشخص آخر فقط ، غير السائق بالطبع . وبعد محطتين اثنتين نزل الشخص الآخر وبقيت بمفردى .. محطتى كانت السابعة أو الثامنة . لم يصعد أحد قبلها الأتوبيس وبالطبع لم يهبط أحد .. قررت أن أكمل رحلتى مع هذا الأتوبيس إلى نهاية الخط وطوال حوالى عشرين محطة يستغرقها خط سير الأتوبيس لم يصعد أحد ولم يهبط أحد .. إذن هذا الأتوبيس قام من ميدان الجامعة إلى ساحل البيتش وود من أجل مواعده فحسب . وتحرك هذه المسافة كلها بطوله وعرضه ودخله منها لا يتعدى دولاراً واحداً .. أقل من ثمن نصف لتر من الوقود .. لن أقول لك أكثر من ذلك .

ليس لى شأن كما تعلم بالبيتش وود إنما كنت أتتبع مسار هذه الأتوبيسات من باب ما نسميه فى الرحلات «بالجولات الحرة» ، عدنا من البيتش وود ، لم يكن ينتظرنا هناك أحد على الإطلاق ، وبعد تحرك الأتوبيس بدقة إذا بسائقه يقف به ، هناك وراء الأشجار كانت سيدة تشير إليه كانت فى ملابس الرياضة القاسية ، وكانت فى عقدها الخامس أو ربما السادس . وكان السائق يعرفها ، وصعدت الأتوبيس بملابسها الرياضية .. وكان من الواضح أنه ليس معها شىء على الإطلاق . ربما استغنت بمعرفة السائق لها (وبالتأكيد معرفة المفتش أيضاً) حتى عن أن تحمل الأبونية الذى يبين أن من حقها الركوب !! نعم ياسيدى تبوأَت السيدة مقعدها ، وحدثت السائق عن رياضتها فى ذلك الصباح وبعد خمس محطات أخرى صعدت سيدة أخرى بدينة بإفراط إلى الحد الذى أثر على قلبها بالهبوط . وتبوأَت هى الأخرى مقعدها الذى يبدو أنه كان مخصصاً لها من دون كل المقاعد . وبعد ثلاث محطات أخرى صعدت سيدة سوداء أخرى . بينها وبين السيدة البدينة حديث متصل بدأ بالأمس أو ربما من أمس الأول أو قبل ذلك . والأتوبيس يمضى بنا حتى جاءت محطتى !! هل الحكومة الأمريكية مظلومة أو ملتزمة؟

أين يذهب الدعم ياسيدى .. هل هذا إهدار للدعم . الحقيقة أن المظلوم هو شعبنا المصرى الطيب الكريم الذى عانى ومازال يعانى حتى ولو لم نرفع عنه الدعم الهزيل ! .

(٩)

لعلك تريد بعضاً من الحديث عن المرور في الولايات المتحدة الأمريكية ، بعد ما سمعت عن طرافته . فعلى الرغم من الشوارع العريضة الواسعة والميادين الأكثر اتساعاً فإن هناك كثيراً من القواعد والحدود التى يجب الالتزام بها . وعلى سبيل المثال فإن إشارات المرور في كثير جداً من الأحيان مهيئة بحيث تقودك إلى الامتناع عن السير في اتجاه ما وأحياناً أخرى إلى السير في نفس الاتجاه !! لا تعجب من ذلك فإن في النظام الأمريكى ما يجعل بعض الشوارع ذات اتجاه واحد في أيام العمل وذات اتجاهين في عطلة نهاية الأسبوع، أو في غير ساعات العمل !! وقد أعدوا أنفسهم لذلك بأن جعلوا الإشارة تتكون من رؤوس أو نقاط مضيئة . تضىء بعضها على النحو الذى تكون به سهماً فتعنى المرور وفي ذات الوقت تضىء نفس الإشارة من الجهة الأخرى على النحو الذى تبدو به على هيئة حرف X فتعنى بالطبع عدم المرور.. وإذا كانت الإشارة تعنى المرور كان السهم رمز المرور مضيئاً بالأخضر . أما إذا كانت تعنى عدم السماح بالمرور كان حرف الإكس بالاحمر . و على هذا النحو أيضاً تجد الإشارة للمشاة . حين تخضر فإنها تقرأ لك بالحروف أنك تستطيع المشى . وحين تحمر فإنها تقرأ لك " لا تمش " !!

ومع هذا فإن من حق أى مواطن يمشى على قدميه (أحب أن أقول من حق كل راجل ولكنى أخشى المطبعة أن تصححها كل رجل فيصبح المعنى مشوهاً تماماً كأنه ليس من حق السيدات) ، أقول من حق كل من يمشى على قدميه أن

يكسر الإشارة ويمشى ، وتحترمه السيارات مع هذا تماماً. أما اللافتات الإرشادية التى تقودك طوال طريقك فهى نموذج حى للحضارة الأمريكية التى قامت على الوضوح التام الذى لا لبس فيه. الوضوح الذى يعنى التحديد الذى يكون القول السائد فيه هو «وعلى سبيل الحصر» لا «على سبيل المثال» .. ولأنهم يأخذون الأمور على سبيل الحصر لا على سبيل المثال فإنهم يقللون إلى أدنى قدر ممكن من المسائل الخلاقية والاجتهادية والتفسيرات المتضاربة .. تلك المسائل والأمور التى تحكم اليوم أكثر من ٩٩٪ من مشكلات الإدارة المصرية حين تتصدى هذه الإدارة لمسئوليتها !! بقى أن أذكر لك أنك تجد عند تقاطع شوارع المدينة مع الطرق التى تؤدى إلى الطرق السريعة التى تمر بالمدينة من خارجها لافتات تذكر رقم الطريق . والطرق السريعة فى أمريكا مرقمة كله ، أو هى أرقام فحسب ، وقد انتبهوا عند ترقيمها إلى أن يعطوا الطرق التى من الجنوب إلى الشمال (أو بالطول كما نقول) أرقاماً فردية . وأن يعطوا الطرق التى من الغرب إلى الشرق (أو بالعرض كما نقول) أرقاماً زوجية. وهكذا فإنك لن تضل طريقك أبداً .. اللهم إلا أن تكون فى طنطا متوجهاً إلى الإسكندرية فتأخذ طريق القاهرة الإسكندرية وتصمم على السير فى إتجاه القاهرة إلى أن تكتشف هذا الخطأ بعد بضعة كيلو مترات .

(١٠)

وفى كل ما حققته أمريكا وما تحققه لا تزال أمريكا حكومة وشعباً تؤمن بالكتاب والمكتبة .. لم يززع هذا الإيمان الدفين فيها أنها هى التى نشرت التلفزيون وبرامج التلفزيون .. لا تزال المكتبة عند هؤلاء القوم شيئاً مقدساً. والمكتبة هى إحدى المعالم السياحية البارزة فى كل مدينة وكل حى من أحياء

أمريكا، مبناها فخم ضخم تحوطه الحدائق أو مساحات الانتظار، ومواعيدها مناسبة لكل الفئات، والتسهيلات التى فيها لا تخطر ببال.

ومع هذا كله فقد اتسعت المكتبات الأمريكية العامة لمجاراة روح العصر ، فأصبحت تعتمد على الكمبيوتر فى الفهرسة والتزويد والاستعارة، وأصبحت تضم قاعات خاصة بالكمبيوتر والبرامج المسجلة على شرائط المغنطة الصلبة Hard desk ولكن كل هذا من منظور مساعد للكتاب وليس بديلاً عنه. ولا تزال ترى أمارات الخير وبشائر الأمل فى مستقبل هذا الشعب حين ترى الشباب والشابات وفى أيديهم الأعمال الأدبية يقرأونها فى قاعات الانتظار، أو وهم قادمون لزيارة المرضى فى المستشفيات .

أما المكتبة الطبية الأمريكية فشئ مبهر وأنا كما ترى أتحدث عنها كشئ واحد ولا أقول المكتبات . وذلك أننى أريد أن أدلك على ما فعلوه بهذه المكتبات حين جعلوها جميعاً تتصل بقاعدة معلومات قوية تهيب للطبيب (أوالممرضة) أن يتلقى أى مقال يريد أن يقرأه فى خلال يومين على أقصى تقدير ، وذلك بفضل برنامج للبحث عن المعلومات يأخذ فى اعتباره المسافة بين موقع الطبيب السائل عن الشئ، وموقع المكتبات التى فيها هذا الشئ، وينتقى أوتوماتيكياً لهذا الطبيب أقرب هذه المكتبات إليه حتى لا تتكلف المكتبة الطالبة كثيراً من نفقات البريد . أحب أن أضرب مثلاً بالطلبات التى كانت أمامى فى مكتبة مستشفى كليفلاند. فكثير من هذه الطلبات كان موجوداً فى مكتبة جامعة CWRU فى كليفلاند نفسها. تسألنى ولماذا لا يخطفون رجلهم إلى مكتبة جامعة كيس ويسترن، ويبحثون هناك عما يريدون قبل أن يسألوا عنه الكمبيوتر. فأجيبك فى هدوء وماذا يفعل الكمبيوتر إذا خطفوا أرجلهم ، تماماً (مع عكس المنطق) كما يتمنى مصرى أمريكى أن ندخل الكمبيوتر فى مصالح الحكومة فنجيبه ياسيدى القارئ بقولك وماذا نفعل بجحافل الموظفين ؟

وقد كنت في غاية السعادة حين أتاح لي الحظ أن أطلع في ركن الكتب الموجود في أحد المحلات العامة على مجموعة كبيرة من الكتب التي خففت أسعارها إلى أقل من الدولار، وأسعدني أكثر أن أرى بين هذه المجموعة مجموعات الكتب التي تمثل الحلقات أو المسلسلات التليفزيونية الشهيرة .

وقد وجدت أن حلقات أيام حياتنا Days of our lives موجودة في أحد عشر كتاباً على الأقل .. ووجدت من سلسلة "عالم آخر" Another world اثنا عشر كتاباً ومن مسلسل دالاس الشهير أحد عشر كتاباً . ومن مسلسل (بينما يتقلب العالم) As the world turns كذلك والطريف أن الذي يقوم بنشر هذه المجموعات ناشر كندي أو مقره في كندا هو Pioneer communication network وتطبع هذه الكميات الضخمة في كندا وتحمل علامة تجارية اسمها Soaps & Serials وتوزع كما ترى في كافة أنحاء الولايات المتحدة ، وقد ينزل بها التخفيض إلى حوالى ٦٧ سنتاً أى أن الثلاثة بدولارين . وتسألني عن سر سعادتي ، لعلك توافقني على أن الأدب التليفزيونى لا بد أن يكون مكتوباً وإلا تحول إلى مجرد أداة لملء أو لسد الفراغ بين ألعاب تليفزيونية مبهرة .. أى بعبارة أخرى لا بد أن ترقى الفكرة الفنية والأدبية في مادة أى عمل تليفزيونى إلى درجة أن تكون قابلة للصياغة في كتاب . وربما أعود لاستيفض معك في نقاش هذا الموضوع في موضع آخر .

(١١)

لا يزال الطعام الأمريكى رخيصاً وفي متناول الناس جميعاً . ربما لا يزال عندهم ذلك الخير الذى كنا نفخر به في مصر من دون أن نحمد الله عليه ، حين يكون في وسعك مهما كان دخلك أن تجد طعاماً يكفيك الجوع. وقد كان من حظى أن أتناول الطعام في عدد من المطاعم الراقية التى تختلف جنسيات طعامها من المكسيكى إلى اليونانى إلى الإيطالى إلى الفرنسى إلى الصينى ، وذات

مرة قال أحد أصدقائنا وكان يابانياً ألا تودون أن تأكلوا طعاماً أمريكياً .
 ووجدتنى أعلق أنه لا يوجد شيئاً أسمه الطعام الأمريكى اللهم إلا إذا كنت
 تقصد تلك الوجبات السريعة من أمثال الهوت دوجز ، والبيزاهت ، والماكدونالد
 وحتى هذه فإنها تطویر لأطعمة أخرى فالبيزا هت هى الطبعة الأمريكية من
 البيزا الإيطالية ، وهكذا .. أنا لا أعرف إن كنت مصيباً فيما أقول أم لا ..
 ولكننى وجدت المستمعين من زملاى الذين كانوا معنا فى السيارة
 يوافقوننى... والله أعلم . ولكنى مع هذا أريد أن أحدثك على سبيل المثال عن
 هذا المطعم الذى كثيراً ما يزود مؤتمرات قسم الباطنة العامة بالطعام ، اسمه
 السيد البطل MR. HERO وقد جعل شعاره المطبوع على الأكياس الخاصة به أنه
 منقذ العالم من الأطعمة السريعة التقليدية !! تسألنى عن هذا الإنقاذ الذى
 صنع فأقول لك إنه يقدم ستة أنواع من السندويتشات يبعث حوالى سبعة من
 كل نوع فى كيس وعليه اسم النوع بالقلم الفلوماستر ، كيس لسندويتشات
 الديوك الرومى [فى البلاد التى تمت للحضارة الرومية يسمونه بالديك التركى
 وفى بلاد كمصر والبلاد العربية ارتبطت بتركيا يسمونه بالرومى] وكيس
 لسندويتشات اللحم البقرى المحمر ، وثالث لسندويتشات لحم التونة ،
 وخامس لسندويتشات الجمبرى، وسادس من نوع آخر من لحوم الخنزير
 وكل سندويتش ملفوف فى أوراق السيد البطل منقذ العالم من الأطعمة
 السريعة المعتادة . مع أن مسألة إنقاذ العالم هذه فيها نظر!! . وأحب أن أذكر
 لك كذلك أن أمريكا انتبهت منذ ما قبل منتصف الثمانينات إلى خطورة
 استعمال الأكياس النايلون على البيئة والغلاف الجوى وعادت أمريكا إلى
 استخدام الأكياس الورقية التى نعرفها جميعاً فى مصر ونظنها من بقايا عهد
 عصر ما قبل الانفتاح .

وفي أمريكا يحرصون الآن تماماً على الاستفادة من الصحف القديمة في صناعة الأكياس الورقية. وعلى الاستفادة من علب الصفيح الفارغة التي تستخدم للمشروبات والمأكولات كذلك .. وعندهم الآن نظام قومي اسمه إعادة التدوير Recycling يقتضيه أن يجمعوا هذه المواد على بعضها وأن يضعوها في أكياس مخصصة بحيث تذهب بعيداً عن القمامة إلى المصانع التي تتولى إعادة تصنيعها .. وتجد الأكياس الورقية مكتوباً عليها أنها صنعت من مواد «إعادة الدورة» . وهكذا .. وأذكر للإنصاف أن هذا النظام متبع في المملكة العربية السعودية منذ مرحلة مبكرة وبالنسبة لي فقد رأيت في السعودية بدون الاسم طبعاً قبل أن أراه في أمريكا - لا أذكر بالتحديد في أي المرات ٧٨ أم ٨٨ أم ٨٩ ولكنه أصبح اليوم بمثابة حمى جميلة تجتاح أمريكا كلها وفي معظم مصانعها وبيوتها وشوارعها أماكن مخصصة لإعادة الدورة Recycling .

(١٢)

و اهتمام مراكز البحوث الأمريكية والجامعات هنا بموضوع ما قد يصل إلى حد الجنون ! هذه هي حقبة أزمة هدام مثلاً فلماذا بالدراسات التي تتناول الموضوع من كل زاوية لا تنتهي . وأنت تعرف أن نظامهم التعليمي في الجامعة يقوم (في أغلب الأحوال) على ما يسمى بنظام الساعات المعتمدة في الجامعات ، وهو نظام يتيح للطالب أن يختار مقرراته في حدود وتكون النتيجة أنه ينجذب إلى موضوع الساعة .. أحياناً لأنه سيجد مواد متوافرة ، وأحياناً لأنه يرضى فضوله، وأحياناً لأنه يمهّد نفسه لشيء ما في الوظائف القادمة بعد انتهاء هذه الازمة .

وفي كثير من الأحيان يُعبر الطلاب من خلال اختيارهم للمواد التي يدرسونها عن رغباتهم الشخصية وفي هذا المجال يذكر أستاذ مسلم في جامعة

أمريكية أنه وزع استبياناً على طلابه في نهاية الفصل الدراسي وكان من بين أسئلته : لماذا اخترت هذه المادة ؟ وجاءته إجابة طالبة يهودية تقول :- to fight Is- lam لأحارب الإسلام، ربما لم تكن تعرف أن هذا الأستاذ مسلم، وربما كانت تعرف ولا تبالي . وقد تداولت الصحافة العربية في منتصف الثمانينات على ما أظن ما أسمته بفضيحة التحقيق في مؤتمر إسلامي في جامعة هارفارد مولته المخابرات الأمريكية بخمسين ألف دولار ، وهذا المبلغ كما تعرف مما تقرأ عن المؤتمرات المصرية (لا الأمريكية) ليس شيئاً ذا بال خاصة إذا علمنا أنه شارك في هذا المؤتمر ما لا يقل عن ثلاثين عالماً أتى معظمهم من الشرق الأوسط خصيصاً له .

(١٣)

هل نجت أمريكا من حمى الطائفية والتفريق العنصري أم أنها لا تزال تعاني ؟ سؤال كان لا بد لي من أن أتأمل الواقع أمامي لأجد عليه إجابة . ولابد أن أطلب إليك أن تحاول معي معرفة نسبة السود بين هذا الشعب ، فأحياناً ما يهيم للمرء منا أن ٩٠٪ من الأمريكيان سود على عكس ما قد يعتقده الكثيرون منا أيضاً أن ٩٠٪ من الأمريكيان بيض — في الأتوبيس مثلاً ١٠٠٪ سود — بين طوائف معينة ١٠٠٪ سود — في الأسواق العامة ، في مداخل الفنادق ... إلخ ، وعلى الرغم من أن هذا البلد هو بلد الإحصاءات فإنك لن تستطيع أبداً أن تقتنع بكثير منها .. ومع ذلك فهم يقولون أن ٦٠٪ من سكان ولاية أوهايو مثلاً من السود والله أعلم .

تأمل بعد هذا إعلانات التلفزيون فمن الغريب أن تجد الإعلانات وقد قصرت النجومية على السود .. هذا إعلان شهير عن دجاج كنتاكي في هذا

الإعلان نجد أبطال رياضات كمال الأجسام وكلهم من السود ، وهم يستمتعون بهذه الوجبة. وينفثون شرر النار من أفواههم بعد تناولها ثم إذا بهذا الشرر قادر على أن يضع كرة السلة في السلة بلا مجهود! مع أن دجاج كنتاكي هذا كما تعرف ياسيدى ليس إلا كثيراً جداً من المتבלات فوق قليل من الدجاج يكفى بالكاد لإطعام شخص أقل من العادى فيما يتعلق بكمال جسمه أريد أن أسألك هل لا يصلح هذا الإعلان بنجوم بيض ؟ اعتقد والله أعلم أن مثل هذه القوة العضلية البارزة لا توجد في البيض أبداً بنفس القدر الذى هى فيه في هؤلاء السود الذين يبعثون الشرر القادر بعد ذلك على أن يخطف كرة السلة ليضعها في سلتها .

(١٤)

وأخيراً .. أحب أن أقول لك إنه لا يزال عند الناس في أمريكا [عموماً] شعور الصداقة ، خذ مثلاً هذه المسافة التى أقطعها في مرتفعات كليفلاند في طريقى إلى الأتوبيس أو إلى السوبر ماركت أو لمجرد المشى ، ها هم الناس يبدؤوننى بالتحية حتى أولئك الجلوس في شرفات منازلهم عن بعد .. ولكنهم على النقيض من ذلك حين يكونون في مجتمع مزدحم . تجدهم متحفظين إلى أبعد الحدود .. وفي المستشفى تجد الزملاء والزميلات حريصين على أن يطمئنوا على أحوالك كلها : سكنك ، صياحك ، سفرك ، هواياتك ، راحتك .. ولكن ليس من اللحظة الأولى .. وحتى في الأتوبيس تجد السائق يفتح معك حديثاً عن عملك ، و عن مواعيدك ولكن ليس من المرة الثانية أو الثالثة التى يراك فيها ولكن ربما من الرابعة . هل أريد أن أقول إن الأمريكين ليسوا إنجليزاً ؟ نعم بالطبع .. ولكن هل هم شرقيون ؟ نعم وربما أكثر من الشرقيين الذين نعرفهم الآن .

الفصل الثاني أمريكا تستعيد أم تستعير روح العصر

(١)

كان أول سؤال وجهته إلى صديقيّ اللذين تفضلا بمرافقتي من الفندق إلى المنزل عن هذه الأعلام الأمريكية الكثيرة المرفرفة على كثير من المنازل وكان الجواب : بمناسبة الحرب ، قلت ولكن الحرب انتهت منذ أسبوعين بالنصر، قالوا: نعم ولهذا يحتفظ بها الأمريكيون !! . وطوال إقامتي وجدت الشعب الأمريكي وقد أصابته روح جديدة روح تستعيد الانتصار على العراق! وتستعيد بهذا الحدث (الإعلامي) روح الانتصار ! . أما أن أمريكا انتصرت فأمر لا شك فيه .. وأما أن المعركة كانت صعبة فأمر هو الشك بعينه !! ولكن الإعلام الأمريكي لا بد أن يصورها كذلك ليجعل للانتصار معنى ! . أريد أن أقول إنه لم يكن هناك مبرر على الإطلاق لكي تخرج أمريكا من هذه المعركة بغير النصر! ولكن الأمريكيون لا يريدون إبراز هذه الحقيقة لأنهم بإبرازها يضيعون روحاً استعادوها . ثم أظهروا للناس وأنفسهم أنهم استعادوها !! لأنهم كانوا منذ حرب فيتنام في حاجة إلى استعادتها !! .

روح النصر التي تغمر الأمريكيين اليوم روح مستعارة .. وهم أول من يعرف ذلك .. فأمریکا وجدت نفسها أمام فرصة سانحة ربما لن يجود التاريخ

بمثّلها ومن المؤكّد أنّه لم يُجدّ فيما مضى بمثّلها على الإطلاق .. وقد عاملت أمريكا الفرصة السانحة التي أتتها كما يتعامل الرجل كبير السن مع كنز ذهبي لامع يجده في الطريق الخالي إلاّ منه فإذا هو مصمم على ألا يتناول الكنز إلا بعد الاطمئنان تماماً إلى انتفاء شبهة المفرقات عنه ، لأنه لا يزال يذكر قصة الألغام التي كان العدو يلقّيها على الناس على هيئة أقلام وساعات ، فإذا ما انتهى من كل الشكوك استدعى للكنز الذهبي خبراء المفرقات ! وأكثر من هؤلاء الخبراء ، من دون أن يدفع لهم أجراً من جيبه ، وإنما هو قد استطاع أن يقنع أصحاب البيوت المهجورة القريبة من موقع الكنز بأنه لا بد لهم أن يشاركوه عملية إنقاذه لکنز لأنه يشك في أن خادمه نسي في داخل كنزه (الذي وقع منه !! ... وهكذا أصبح تعبيره عن الكنز مصمماً على وصف تملكه !!) مواداً مفرقة قد تودي بحياتهم إذا ما وُجدوا بالصدفة بالقرب منه ساعة انفجاره .. وأصحاب البيوت المهجورة الواقعة في الشارع الذي فيه الكنز يدفعون لخبراء يقولون تطهير الكنز من الغام وهمية أو شبه وهمية .. والرجل المسن يأخذ نصيباً من أجور الخبراء نظير استجلاهم من شركة هو المساهم الأكبر فيها .. وبعضاً آخر نظير أجهزته التي يبيعها لهم من شركة أخرى هو صاحبها المنفرد ، وبعضاً ثالثاً نظير تعليمهم وتدريبهم في معهد أمّني يسيطر عليه بماله وخبرته .. ومع كل ذلك يحتفظ بالكنز، ثم يحكى الرجل العجوز لأولاده وأحفاده المقيمين في البعد كيف أجهد نفسه في التقاط هذا النضر الثمين.. بينما كان هناك كنز آخر قريب لو وفقه الله إليه لكسب أضعاف ما كسب من الكنز الأول .. أقصد بالطبع حل مشكلة الفلسطينيين.

على أية حال فالانتصار الأمريكي في حرب الخليج أيضاً كان حجمه هو أصدق تعبير عن الشخصية الأمريكية اليوم في مجال الأعمال . وقد خاضت أمريكا الحرب وأدارتها من باب علم إدارة الأعمال وليس من باب الحماس .

وكل ما حققته أمريكا في هذه الحرب هو انعكاس أمين لما وصلت إليه أمريكا في مجال إدارة الأعمال .. وكل ما افتقدته أمريكا في هذه الحرب هو انعكاس أمين أيضاً لكل ما تفتقده سياسات إدارة الأعمال في أمريكا .

وطوال ساعات وأيام ممتدة كنت حريصاً على أن أصل إلى بعض الأضواء الكاشفة التي حكمت تصرفات أمريكا في حرب الخليج.. ربما استغرقت في تفكير عميق ومتصل في بعض الأحيان ، وربما انتبهت على لمحات سريعة ومتقطعة في أحيان أخرى ، ربما أسرفت في التأمل حيناً ، وربما أسرعت بالاستنتاج حيناً آخر ، ربما حاولت تعمق بعض الظواهر في بعض الأوقات. وربما اضطرت إلى البعد عن تفسير الظاهر بغير ماهو ظاهر، ولكنى مع هذا أستطيع أن أزعم بأن هناك عدة عوامل حاكمة كانت من أهم خصائص السلوك الأمريكى في حرب الخليج وهو السلوك الذى قاد إلى النصر الذى نعرفه . سواء استعادت أمريكا روح هذا العصر . أو استعادت أمريكا به روح العصر .

- □ تركيز العمل في خط واحد .
- □ النقطة المثالية هي الهدف وليست النقطة القصوى .
- □ التمويل قبل التخطيط (وبالطبع قبل التنفيذ) .
- □ التجريب في نطاقات محدودة .
- □ التوثيق القابل للاستدعاء الفوري .
- □ وسائل الاتصالات المتعددة غير المتقاطعة .
- □ تقليل الأمر الواقع كواقع .
- □ تقدير الأمثال .
- □ استثمار اللغة .
- □ نمذجة السلوك الإنسانى .
- □ نمو التفكير الرياضى البيولوجى .

هل تسمح ياسيدى القارئ أن أتحدث عن هذه العوامل بشيء من التفصيل :

(١) التركيز في خط واحد : هذا هو أبرز وصف (أو أصدق) للاتجاه الذى يسيطر اليوم على البيروقراطية الأمريكية في دواوين العمل وفي البيوت أيضاً .. لا تجد موظفاً يلتفت إليك ولو بالتحية إذا كان مشغولاً مع عميل سبقك إليه .. وأنت تطلب التليفون فيأتيك الصوت من على الجانب الآخر أن انتظر دقيقة قبل أن تتكلم ويحولك إلى موسيقى الانتظار ربما لعشرة دقائق حتى ينتهى الطرف الآخر من حديث تليفونى على خط آخر !! هل هذا هو الهدوء أم هو البرود ؟ قد نختلف في التعريف والتوصيف .. ولكن العقلية الأمريكية اليوم لا تعمل في أكثر من اتجاه في ذات الوقت وقد كانت معركة الخليج نموذجاً حياً للاقتصار على اتجاه واحد في كل حين .

□□ الحرب الأهلية تأخذ شهوراً من وقت العالم .

□□ القرارات الدولية والمشاركات تمضى خطوات لا يعوزها التعقل ولا الصبر الشديدين .

□□ الهجوم الجوى يستغرق هذه الأسابيع الطوال وليس من هجوم سواء.

□□ ترتيب الأوضاع يستغرق كل هذا الوقت وبدون نظر إلى شيء آخر.

□□ الانسحاب يتم كما لو كان مسألة بيروقراطية تجرى على مهل شديد .

(٢) النقطة المثالية هي الهدف : كل من درس التفاعلات البيولوجية والكيميائية يفهم هذا المعنى جيداً ... وسأحاول أن أختزله في مثل بسيط وهو أن أنسب درجة حرارة لجسمنا هي حوالى ٣٧ درجة مئوية مثلاً .. إذن فليست زيادة درجة الحرارة أو قلتها هدف وإنما الهدف هو الوصول إلى نقطة معينة على المنحنى ، عند هذه النقطة يتم التفاعل المطلوب بأحسن ما يكون من نتائج.

وأتركك ياسيدى القارئ تتأمل موقف الإدارة الأمريكية كلها من حرب الخليج في ضوء هذه الحقيقة .

□ □ الخلاف الظاهري الذى لم نسمع عنه إلا بعد انتهاء الحرب بين الرئيس بوش والقائد شوارتسكوف حول تدمير قوة صدام حسين .. وما ظهر للناس جميعاً بعد ذلك من حرص أمريكا الشديد على صدام حسين وبقائه بدرجة محسوبة من القوة والنفوذ!! .

□ □ التعبئة الدبلوماسية في الأمم المتحدة حتى صدور القرار الأخير بتحديد ١٥ يناير، مع أنه كان في وسع الحلفاء التذكير بهذا الموعد (على مستوى القرارات) ولكنه كان الموعد الأمثل على مستوى التعبئة الحربية .

□ □ الضوء الأخضر الذى أعطى لصدام حسين في الوقت المناسب تماماً حين كانت سيارته قد تخطت الإشارة السابقة وأصبحت فيما بين إشارتين.. فأما الإشارة السابقة فقد غفل عنها عسكري المرور العربى لأنه كان يفقد أداة من الأدوات وهى الديمقراطية .. وكانت حرية الصحافة مغيبة غالباً (وبفعل دينارات عراقية في بعض الأحيان) . والإشارة التالية كان لها جهاز مرتبط لسبب تكنولوجيا بحث بالولايات المتحدة في غرفة تحكم مركزية .. والناس يرون عمود الإشارة ولا يرون الإشارة .. وقد تفضلت السيدة السفيرة الأمريكية في العراق فأعطت القائد الملهم انطباعها أو معلوماتها عن طبيعة الإشارة وأنها خضراء. وكانت سيارة صدام مهيئة لعبور الطريق بأكثر مما هى مهيئة للاستجابة للفرامل التى كان صدام قد قلل وعطل وأهمل استخدامها منذ زمن بعيد في ظل ظروف الإسراع المستمر.

□ □ الجرعات الإعلامية المحسوبة في تقدير أوامام صدام وأوهام الناس عن صدام مع الاحتفاظ بروح التحفظ عند القادة الأمريكيين .

(٣) التمويل قبل التخطيط (وبالطبع قبل التنفيذ) : قد تستطيع حكومات أو إدارات كثيرة أن تفخر بأنها وفرت التمويل أو نسبة منه قبل البدء في تنفيذ مشروع ما .. وفي الغالب يكون التمويل جزءاً من التخطيط أو هو المرحلة الأخيرة منها ، إلا أمريكا، فقد استطاعت هذه البلاد بقدرة قادر أن تروض نفسها على أن تجعل التمويل أولى خطوات التخطيط إلى الحد الذي يعرفه كل المتعاملين مع مشروعات التعاون المشترك مع الأمريكيين من أنهم يخصصون منحة أولية لإجراء دراسة الجدوى قبل البدء حتى في طرح التصورات المتعلقة بأى مشروع. وقد نجحت أمريكا في حرب الخليج في توفير التمويل وبأكثر مما هو مطلوب لكل خطوة من قبل أن تبدأ هذه الخطوة .

(٤) التجريب في نطاقات محدودة : يحرص الأمريكيون على استخدام ما يسمونه «موديل» أو «نموذج» للمشروع يبدأون به ممارستهم للأفكار النظرية على الطبيعة . فيكتشفون من خلاله ثغرات التخطيط، وعيوب النظام القائم بالهدف . وفي الحرب ربما يصعب تصور وجود فرص للتجريب في نطاقات محدودة.. ومع هذا فقد ساعدت قلة حنكة الرئيس العراقي وحماقته الأمريكيين على إيجاد فرص ذهبية للتجريب في نطاقات محدودة .. فكانت معركة الخافجى مثلاً نموذجاً مبكراً جداً لدراسة خطط المعارك البرية عند الجانب العراقي مما أدى إلى زيادة الثقة في تطويل أمد الهجوم الجوى .

(٥) المعلومات والتوثيق القابل للاستدعاء الفوري : أمريكا اليوم أعظم الحضارات قدرة على الأرشفة ، ووضع كل شيء في كل الملفات التي تتعلق بهذا الشيء . ولكن أمريكا التي تبذل من نفسها كل هذا الجهد في توثيق كل خطوة وزمنها ومكانها وحالتها وقدرها .. إلخ لا تفعل ذلك من باب حب الأرشفة (أو أداء الواجب كما نفعل) ولكنها تهيبء من كل هذا الأرشفة ذاكرة قوية قادرة سريعة منظمة تستطيع أن تستدعيها في ثانية واحدة .. والتسابق

اليوم بين بنوك المعلومات ونظم المعلومات يدور حول المدى المتناهي في الصغر من الثانية لاستدعاء المعلومات . وفي كل اللحظات التي كان على القائد الأمريكي فيها أن يفاضل بين خيارين كانت بنوك المعلومات تفاضل له بين تلال من المعلومات والبيانات إلى الحد الذي كانت نسبة الخطأ تتلاشى ونسبة الزيف تنعدم .

ومع هذا فإنني متأكد أنك سوف تطالع في الشهور والسنوات القادمة انتقادات عنيفة من النواب والسيوخ الأمريكيين للمخابرات الأمريكية ووزارة الدفاع لأنها لم توفر للجيش الذي تولى عاصفة الصحراء معلومات عن تكلفة سندويتشات الفول المصري التي كان من الممكن نقلها بالطائرة إلى القوات الأمريكية في عطلة نهاية الأسبوع كبديل ممتاز للكشري الأمريكي !! بدلاً من انتظار هذا الكشري من أمريكا فيأتي بعد ٢٤ ساعة من تصنيعه .

(٦) وسائل الاتصالات غير المتقاطعة : نجحت أمريكا في أن تطور نظم اتصالاتها بحيث يصبح أمام كل زميلين (في كثير من المؤسسات التي أتتحت أن أتأمل طريقة عملها) الفرصة للاتصال ببعضهم من خلال ثلاث وسائل على الأقل . ومع هذا فقد احتفظت هذه النظم بالقدرة على الخصوصية في الاتصالات بحيث يمكن بشيء قليل من التحكم الفعال إبعاد بعض المعلومات عن متناول الكثيرين وإبقاء هذه المعلومات في إطار السرية المطلوبة ، وسأذكر على سبيل المثال كيف تطورت نظم الاتصالات داخل القسم الواحد في المستشفى الواحد إلى الحد الذي لا يستطيع أعضاء القسم ملاحظته - ولكنهم ساعة لجوئهم إلى هذه الوسائل يجدون من يدلهم عليها في التو واللحظة - وقد صادفت في كليفيالاند كلينيك كثيراً من الطوائف حين أتتحت لي مثلاً أن أدل اثنين من هيئة الأطباء العاملين هناك على السبيل إلى معرفة ما إذا كان المريض قد أجرى فحص الدوبلر المقرر له الآن أم لا دون الذهاب إلى حجرة الفحص وذلك

من خلال نهاية من نهايات الكمبيوتر اكتشفها معلقة في مدخل المعامل كلها .

وهذه المعلومات لا سبيل إلى احتكارها لأن احتكارها يضيع وقت المؤسسة في سؤال موظف مخصص لاحتكارها وتنظيمها بينما إشاعتها هي الأوفر . وعلى الطرف الآخر كانت هناك معلومات أخرى تتعلق بأمور بيروقراطية بحثة هي في الواقع أقل أهمية بالنسبة للأطباء ، ولكن النظام لا يسمح بإشاعتها وتداولها على هذا النحو ، ومثل هذه المعلومات يصعب على الجميع الوصول إليها إلا أصحاب الخصوصية !! والحديث عن مستويات المعلومات والتحكم في تدفقها وسريتها يطول .. ولكني أحب أن يتأمل القارئ معي كل سيناريو حرب الخليج ليتأمل هذه المستويات المتعددة تعدد المعلومات نفسها .

(٧) تقبل الأمر الواقع كواقع وكمواقع فقط : أصبحت نفسيات

الأمريكيين قاصرة على تقبل الأمر الواقع ولكن في حدود وجوده فحسب .. فالأمريكيون لا يخفون رموسهم في الرمال ولكنهم أيضاً لا يسلمون بالحقوق المدعاة من خلال الأمر الواقع .. وعند الأمريكيين قدرة على التجاوز عن الخطأ إذا ما كان في الانشغال بالخطأ نواة لضياع وقتهم .. وتستطيع مثلاً أن تأخذ مكان غيرك في الطريق بسيارتك فإذا هي هادئة صامتة إذا استطعت أن تفعل ذلك في غفلة منه ، ولكنه ثائر إذا لحك وأنت تحاول ذلك فإن الأمر لا يزال بيده أن يمنعك . أريد أن أزيد هذه النقطة وضوحاً فأقول لك إن الأمريكيين يبحثون في ثنايا الواقع عن بعض الحق - ولكنهم يقصرون هذا البحث على الأحوال التي يجدون أنفسهم فيها مضطرين لقبول الأمر الواقع - أو في حاجة إلى وجوده أو قبوله .. فإذا ما انتفت الحاجة للاضطراب ، فالأمر الواقع عندهم ليس إلا شيئاً قابلاً للزوال . وأحياناً أخرى جديراً بالزوال . وأحياناً قليلة واجب الزوال بأيديهم هم !! .

(٨) تطوير المعتقدات : للحضارة الأمريكية اليوم قدرة بارزة على التحرر من الحكم والأمثال والأقوال الماثورة التي تحكم الحياة .. قارن هذا بعقلياتنا حين نحاول أن نتأمل المثل العربي القديم على أنه يكون في بعض الأحيان أقرب إلى منظور «خدعوك فقالوا» وكيف نواجه الفشل مهما كانت خبراتنا وأدلتنا أقرب إلى الواقع والصواب.

هذه هي مجلة النيوزويك الشهيرة تخصص صفحة كاملة لهذه الأقوال التي تلعب بها البورصة كل أسبوع .. ترتفع بأسهم بوش مرة وتنخفض بها مرة أخرى وهكذا تفعل مع كل الشخصيات ... مستخدمة الأسهم الصاعدة ↑ وأحياناً المتوازنة → ← ثم تضع بعض الأمثال الشائعة في ركن وتضع الأمثال الحديثة التي أسفرت عنها الظروف الجديدة . قد اختصر لك بعض الأمثال التي عدلتها النيوزويك في عددها الصادر في منتصف مارس ١٩٩١ حين تتناول شعار المظاهرة الأمريكية الذي كان يقول «لا دم من أجل البترول» ا فتضع بدلاً منه مثلاً جديداً يعبر عن الحقيقة التي انتهت إليها الحرب من الحصول على البترول بلا دم !! .

كان المثل No blood for oil فأصبح المثل Oil for no blood . هل رأيت تعبيراً أبلغ وأكثر قدرة على السخرية والتصوير معاً من هذا المثل المحصور!! وهكذا تمضى النيوزويك في إمتاعك بلاغياً وفي ذات الوقت تضاعف من حزنك على العراق وزعيم العراق!! وهكذا تصبح الحضارة الأمريكية (والأداء الأمريكي في الحرب) قادراً على أن ينتفع دائماً باتجاه الريح حسبما تأتي الريح لاحسبما كان يعتقد في اتجاهها قبل أن تقلع سفينة الحياة أو سفينة الحرب .

تستطيع أن تبالي في التعبير عن هذا الخلق عند الأمريكيين فتقول إنهم لا يعبدون إلا الواقع، ولا يعتقدون إلا في الظروف ، ولكنك لا تستطيع مع هذا

أن تنكر على هؤلاء ثروتهم الضخمة من الأقوال والأمثال الكفيلة بهدايتهم في بحار الظلمات التي تحيط بالبشرية من كل جانب.

(٩) استثمار اللغة : كنت أتحدث في عشاء رومانسي جميل بين أساتذة رفيعي الثقافة عن فضل الأمريكيين على اللغة الإنجليزية . فقلت إن الأمريكيين أعطوا هذه اللغة بُعد « البلاغة » بعدما أعطوها الإنجليز بُعد « الدقة » ... وأنه لكي نفهم هذا الفضل الأمريكي على اللغة الإنجليزية يكفي أن ننظر الآن مثلاً إلى قائمة الطعام التي سيحضرها لنا القائم بخدمة في المطعم ونتأمل الصياغات المختلفة للعبارة المفترض أنها تؤدي وظيفة محدودة جداً في وصف أطباق هي في الأغلب تقليدية جداً .. فقد كان المطعم أحد المطاعم المكسيكية الكلاسيكية . لم يكن الأساتذة الأفاضل في حاجة لمثل هذا ليوافقوني على رأيي، بل كان عندهم من الفهم العميق ما دعاهم إلى إثبات موافقتهم التامة على مزاعمي هذه.

ولكنني وجدت نفسي أستفيض في الحديث (بحرفية الأزهرين القدامى) عن بعض مظاهر البلاغة الطاغية في استخدام الأمريكيين للغة .. فلا تكاد تجد إعلاناً واحداً لا يصلح لأن تضعه في امتحان البلاغة لطلاب المرحلة الثانوية للبحث عما فيه من مجاز لفظي أو لغوي أو استعارة أو كناية أو تشبيه بليغ على أقل تقدير .. دك من الجناس والطباق والسجع والمحسنات البديعية التي لا تنتهي .. وقبل كل هذا هناك الأفكار التي لا جدال في استحداثها حتى وإن جادلت بسهولة في مفزاها وصحتها .

أحب أن أخذك معي بعض الشيء لاستكمل ما قلت ساعتها من أن الألمان قوم عظماء لا شك وقد أعطوا (شأنهم في ذلك شأن العرب) لغتهم قدرة عظيمة جداً على "التعبيرية" حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم من دقة تعبيرية

بالغة .. ولكن لا الألمان ولا العرب استطاعوا أن يستغلوا اللغة كما استغلها الأمريكيون . فانت ترى النص القانونى أو التاريخى فى اللغة الألمانية أو اللغة العربية وقد صيغ صياغة ممتازة تسمح لك بعد تأمله أن تتبين الصواب من الخطأ، والم شروع من المحظور، والواقع من الخيال ، والمرغوب من المتروك . نعم تستطيع أن تصل إلى كل هذا من خلال الصياغة فى بناء الجملة العربية أو الألمانية فى نسيج النص اللغوى المتاح متى تأملته، ولكنك لا تستطيع أبداً أن تزعم أن هذا النص الألمانى أو العربى قادر على أن يصدك بما يريد بمجرد قراءته .. قارن هذا بما تجده من نفسك من هذا النص الأمريكى المفكك (غالباً) فى صياغته حين تجد نفسك قد فهمت منه كل ما يريد هؤلاء القوم أن ينهوه بكل ما حملوا اللفظ من إحياءات ربما لا يستطيع أن يحملها، ولكن الأمريكيين بطريقة ما جعلوه قادراً على هذه الوظيفة.

قد يضع الأمريكىون اللفظ فعلاً فى غير موضعه . ولكنهم بهذا الوضع يوفرون على أنفسهم ثلاثة سطور كاملة من التعبير الجميل الدقيق . وقد يضع الأمريكىون بعض كلمات وراء بعضها كأنها معطوفة على بعضها ، ولكنهم لا يقصدون إلا التعبير عن صراعات بين الأفكار التى تمثلها هذه الكلمات من دون أن يزعموا لأنفسهم - حتى لحظة التعبير - قدرة على فهم علاقة هذه الصراعات. ولهذا فهم يكتفون بالفصل بين هذه الكلمات وبين ما تمثله من معان بتلك الشرطة البسيطة .

أريد أن أقول إن الأمريكىين أخذوا اللغة على أنها وسيلة من وسائل النجاح فى الحياة والتعامل اليومى واستغلوها أوسع استغلال (ولك أن تقول أبشع استغلال) ربما تبسطوا معها إلى الحدود التى يمكنك معها أن تقول إنهم ابتذلوا تماماً ، وربما تكون رومانسياً مثلى فتقول إنهم أعطوا لغة الإنجليز البلاغة بعد ما أعطوا الإنجليز الدقة . ولكنك فى كلا الحالتين تبقى موافقاً على أن هناك فرقاً كبيراً بين هذه اللغة الإنجليزية فى تلك الجزر البريطانية وبين

هذه اللغة الأمريكية في القارة الواسعة المسرعة القادرة على تحطيم كل شيء من أجل أي شيء يتصايف أن يكون هو الشيء المراد ولهذا فلا تندعش إذا سألك واحد من الأمريكيين ذات يوم عما إذا كنت تتكلم اللغة الأمريكية !! .

(١٠) نمذجة السلوك الإنساني : بلغ تقدم العلوم الإنسانية والاجتماعية في جامعات ومعاهد الولايات المتحدة الأمريكية الحد الذي مكن من اتمام دراسات متقدمة حول كثير من الموضوعات التي تبدو لنا وكأنها محكومة تماماً بالعامل الشخصي والعامل الوقتي، وأنه لا مجال أمام العلم لدراستها على نحو تفصيلي .. من ذلك أن جامعة هارفارد بالاشتراك مع عدد من الجامعات القريبة منها مثل Tufts و MIT أتمت مشروعاً بحثياً أسمته "مشروع مفاوضات هارفارد" وذلك من خلال دراسة قرارات الصراع نظرية وتطبيقاً، وكان من أبرز نشاطات هذا المشروع على سبيل المثال تطوير أفكار عملية الوساطة ذات النص الواحد التي استخدمتها أمريكا في مفاوضات كامب ديفيد من أجل السلام في الشرق الأوسط (١٩٧٨) حيث كان هناك نص واحد أجريت عليه تعديلات كانت كفيلة بجعله مقبولاً من الطرفين .

ولعل مما ساعد هذه الجامعة التي هي من أبرز مؤسسات الحضارة الأمريكية على النجاح والتقدم في مثل هذه الدراسات ذلك الصبر والدأب في تعمق دراسة الجوانب المختلفة من النشاط الإنساني السيكولوجي والعقلي والاجتماعي إلى الحد الذي جعل التنبؤ بحدود الأفعال الخاصة جداً ممكناً جداً.

وعلى هذا النحو استطاعت أمريكا وحضارة أمريكا أن تتعامل في سهولة ويسر مع كل الأطراف في حرب الخليج بدءاً من الرئيس صدام حسين ومروراً بكل الرؤساء الآخرين ، مايجور ، وميتران ، وكافيو ، ومبارك ، وكول ، وفهد والأسد ، والشاذلي بن جديد وأوزال ، و انتهاء بالرئيس الإيراني رافسنجاني

الذى كان من الصعب على أى منجم الوصول إلى تنجيمة محتملة لموقفه وموقف إيران في كثير من لحظات الحرج الظاهرة في حرب الخليج.

(١١) التفكير الرياضي - البيولوجي : و مع أن الأمريكيين قوم عمليون جداً فإنهم في دراسة السلوك الإنساني قوم نظريون جداً .. ثم هم في الوصول إلى قرار أصحاب قدرة على البعد عن القرار الواحد، والتأكيد على البدائل المتعددة .

سأنقل لك فقرتين من كتاب اطلعت عليه منذ مدة في الإنجليزية، وقرأته كاملاً خلال هذا الأسبوع بعد أن وجدته لحسن الحظ قد صدر في اللغة العربية. الكتاب اسمه " نحو التآلف والاتفاق أو بناء علاقات إيجابية " مؤلفاه هما روجر فيشر وسكون براون - من ترجمة الدكتور محمد محمود رضوان وقد أشرفت الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية بالقاهرة على ترجمته وإخراجه ، ونشرته الدار الدولية للنشر والتوزيع (١٩٩١) .

الفقرة التي يطيب لى أن أدلك عليها تتحدث عن اختلاف الرؤى بين مستوى المدير الأوسط ومستوى المدير التنفيذي الأعلى.. ليس في الفقرة شيء جديد عليك.. أنت تعرف كيف يفكر المدير الأوسط وكيف يفكر المدير التنفيذي الأعلى في ذات الموضوع .. لكنى أدعوك إلى تأمل قدرة الحضارة الأمريكية على وضع كل هذا في جدول وبناء دراسات نفسية واجتماعية عليه، ومدى استغلالها بعد ذلك لهذه الحقائق في متن السياسة.

المدير الأوسط : الرئيس يغير سياسته كما تغير الحرباء جلدها .

المدير التنفيذي الأعلى : الذين يعملون معى يستجيبون لتوجيهاتى ببطء.

المدير الأوسط : هناك كثير جداً من الاعمال الكتابية في هذه المؤسسة.

المدير التنفيذي الأعلى : العاملون يتأخرون في تقديم تقاريرهم الشهرية.
المدير الأوسط : أنا أعمل معظم الفترات المسائية وعطلات الأسبوع ولكن
رئيسي يغادر العمل في الساعة السادسة مساء.

المدير التنفيذي الأعلى : حينما كنت في مستواهم كنت أعمل ليلاً ونهاراً
لكي أحصل على ترقية .

المدير الأوسط : هذه الشركة تكافئ الخبرة الغربية ، يحضرون غرباء
ليرأسوني .

المدير التنفيذي الأعلى : العاملون الذين ندرّبهم يهجرون من أجل
المنافسة .

المدير الأوسط : ربما أستطيع أن أحصل على دخل أكبر في مكان آخر.
المدير التنفيذي الأعلى : إننا ندفع أجوراً لعمالنا أعلى بكثير مما كنت
أتقاضى وأنا في سنهم .

المدير الأوسط : عندما أبلغ مستوى أعلى سوف أكون أكثر تحكماً في
حياتي .

المدير التنفيذي الأعلى : ليس لدى مرءوسى فكرة عن الضغوط التي تقع
عليّ .

المدير الأوسط : إننا لا نسمع عن السياسات الجديدة أبداً إلا في اللحظة
الأخيرة .

المدير التنفيذي الأعلى : إننى لا أسمع من العاملين معى عن مشكلة
يواجهونها إلا في اللحظة الأخيرة .

المدير الأوسط : إن رئيسي لا يثق بى ؛ إنه دائماً يظر من فوق كتفى .
المدير التنفيذي الأعلى : إننى أحطم ظهري لكي أقضى وقتاً مع العاملين
معى وأدربهم . إنهم لا يقدرّون ما أقوم به من عمل .

الفقرة الثانية تحتاج منك إلى خلو البال حتى تتأمل طبيعة المشكلة فيها وتصل إلى التفهم الكامل لما قد نسميه نحن في حياتنا العام بحساب الأرباح والخسائر في علاقة ثنائية بسيطة جداً... انظر كيف يستطيع هؤلاء «النظريون» أن يضعوا مثل هذا النموذج «الحاد» للصراع «الفعال» في علاقة ثنائية كهذه العلاقة.. دعك من كل هذا التقديم الذي أقدم به الفقرات وأقرأها على مهل .

لقد قارن مُنظِّرو الألعاب ديناميكية العلاقة الثنائية بنموذج يطلق عليه «مأزق المسجونين» ، ففي إحدى الأمثلة القصصية لهذا النموذج هناك مسجونان متهمان بارتكاب جريمة خطيرة وقد وضع كل منهما في الحبس الانفرادي ، وكان المدعى على يقين من أنهما مذنبان ، ولكن كانت تعوزه الأدلة الكافية لإدانتهم ، وهكذا أخبر كلًّا من المتهمين أن أمامه اختياراً بسيطاً : أن يعترف ، أو لا يعترف ، فإذا تعاون المسجونان معاً ولم يعترف أى منهما، فإن كلا منهما يمكن أن يتوقع الحكم بالسجن سنة واحدة جزاء حيازة سلاح بطريقة غير قانونية ، أما إذا اعترفا كلاهما فإن كلًّا منهما سيحكم عليه بالسجن ثماني سنوات جزاء الجرائم الخطيرة ، أما إذا اعترف أحدهما ولم يعترف الآخر فإن رافض الاعتراف يمكن أن يتوقع الحكم بالسجن عشر سنوات ، ولكن الذي اعترف سوف يلقي معاملة رفيقة باعتبار أنه «شاهد الملك» ومن ثم يمكن أن يتوقع أن يطلق سراحه ويوضع تحت المراقبة البسيطة.. هذا مع العلم بأن السجينين لا يُمكنُ أن يتصل أحدهما بالآخر . والآن ، فكل من السجينين يواجه مأزقاً : « إذا كان الآخر سيعترف ، فمن الخير لي أن أعترف كذلك . إذ أن ثماني سنوات أفضل من عشر ، أما إذا لم يكن سيعترف فمن الخير لي أن أعترف أنا ، إذ أنني — حينئذ — سوف يطلق سراحى برفق ، وهكذا يبدو أنه من الخير لي أن أعترف بغض النظر عما يفعل

الآخر ، ولكن إذا اعترفنا كلانا فإننا - معاً - سنكون أسوأ حالاً مما لو رفضنا - معاً - أن نعترف .

كان هذا هو مأزق المسجونين فهل تستطيع الآن أن توافقني على أن هناك ما يسمى بالتفكير الرياضي البيولوجي الذي استطاعت هذه الحضارة الأمريكية حتى الآن أن تجد في صياغته وأن تجيد وإن لم تكن قد بلورته تماماً بعد ١١ .

ثم هل تستطيع بعد ذلك ياسيدى أن توافقني على أن هذا الجانب من الحضارة الأمريكية كان ذا شأن عظيم في حرب الخليج .. هل تأذن لي ياسيدى أن أختم هذا الفصل بالفقرة الثانية التي وعدتك بك وهي فقرة من خرافات ايسوب الشهيرة عن الريح والشمس: «ذات مرة ثار نزاع بين الريح والشمس ، أيهما أقوى وأشد . وفي سبيل إنهاء الجدل تحدثت الشمس الريح في مباراة : أيهما يستطيع أن يحمل عابر طريق على أن يخلع معطفه فهو الأقوى . كانت الشمس واثقة أنها ستفوز ، ولذلك تركت الريح يأخذ الفرصة الأولى ، أما الشمس فقد اختفت وراء سحابة تنتظر ، وأما الريح فقد أثار عاصفة ثلجية ، ولكن كلما اشتد عصف الريح تشبث عابر الطريق بمعطفه حول جسده ، وفي النهاية لم يسع الريح إلا أن يستسلم ، وحينئذ خرجت الشمس من وراء السحابة وبدأت تضيء وترسل أشعتها بكل قوتها نحو عابر الطريق الذي بدأ يحس الحرارة والدفاء ، وإذا أخذت الحرارة ترتفع رويداً رويداً خلع معطفه وجلس في الظل ليستريح» .

الفصل الثالث كليفييلاند : المدينة والمجتمع

(١)

حوالى ١٧٦٥ أى منذ أكثر من مائتى عام كان الجنرال جورج واشنطن أول من تنبأ بهذه المدينة . تعبير غريب طبعاً أن تقرا في تاريخ مدينة أن فلاناً هو أول من تنبأ بها . لكننى لا أجد أدق من هذا اللفظ لأعبر عن أن واشنطن لاحظ أن مصب نهر كايهوجا في بحيرة إيرى يناسب مجتمعاً تجارياً سريع النمو . بعدها بحوالى ثلاثين عاماً وفي ١٧٩٦ جاء مؤسس كليفييلاند بفريق من شركة كونكتيكت للأراضى واختار موقعاً كان يسمى بالاحتياطي الغربى وأقام عليه نواة كليفييلاند .

في ١٨١٠ أصبحت هذه المدينة هى المجتمع الرئيسى فيما يسمى بإقليم كايهوجا . أحب هنا أن أذكر لك أننى أترجم County بإقليم . وأصل الكلمة في الإنجليزية فيما يبدو مأخوذة من الكونت ، فالكلمة على هذا تشير إلى ممتلكات الكونت . وقد تترجم بمقاطعة أو إقليم و لعلها هى المرادف للإقطاعات والابعاديات . و في أوائل القرن التاسع عشر بدأت صناعة السفن في هذه المدينة . كان لا بد بعد ذلك من تطوير الاتصال النهري البحرى لهذا المجتمع

الجديد ولا بد أن نفهم أن كثيراً من التحضر الذى أصابته أمريكا كان نتيجة سعيها الحثيث فى تطوير مرفق النقل والمواصلات. والطرق السريعة والطائرات والمطارات والتليفونات والفاكس والبريد الجوى الأمريكى منذ أوائل القرن التاسع عشر . خذ مثلاً على ذلك إنشاء قناة إيرى فى ١٨٢٥ ثم توصيل هذه القناة بنهر أوهايو نفسه بعد سبع سنوات فى ١٨٣٢. وما صاحب ذلك من ازدهار صناعة السفن وتجارتها فى مجتمع كليفيالاند الجديد. فى عام ١٨٣٦ بلغت كليفيالاند مجداً عظيماً هكذا يرون أو يروون ... وذلك: أنه فى ذلك العام وصل تعداد سكانها إلى حوالى ستة آلاف نسمة !! . وها هى كليفيالاند فى أواسط القرن التاسع عشر- تبدأ فى تشغيل مينائها فى حوالى ١٨٥٢ وتبرز فى أثناء الحرب الأهلية كمركز صناعى هام وفى ١٨٧٠ تتأسس فيها بفضل جون روكفلر شركة ستاندرد الشهيبة للبترول وتبدأ معالم المدينة والتحضر والحكومة المحلية تأخذ طريقها إلى كليفيالاند فى مطالع القرن العشرين. وفى أثناء الكساد العالمى العظيم فى الثلاثينات بنت كليفيالاند أول مشروع للإسكان الشعبى فى الولايات المتحدة الأمريكية.

فى السبعينات حظيت كليفيالاند بشهرة اقتصادية سلبية حين أصبحت أول مدينة أمريكية كبيرة تعانى الإفلاس منذ الأزمة الاقتصادية فى الثلاثينات، وتحطمت صناعة السفن فى كليفيالاند بسبب ارتفاع اليد العاملة ، ولكنها سرعان ما استعادت وضعها فى الثمانينات وأصبحت ثانية من أهم المراكز الأمريكية . هذه هى كليفيالاند — عاصمة إقليم من أقاليم أوهايو ، و تبقى لأوهايو عاصمتها كولومبوس.

(٢)

من الطبيعى أن أعدد لك الجامعات فى هذا الإقليم (لا فى الولاية كلها) لعلك طالعت اسم جامعة كيس ويسترن. هناك كذلك جامعة كليفيالاند الحكومية

الحكومية (أجندى مضطراً إلى ترجمة State في كل اسم جامعة تحتوى هذا اللفظ بكلمة الحكومية وكنت فيما مضى أتبع ما اعتدنا عليه في مصر من ترجمتها بجامعة ولاية كذا . مع أنه لا توجد ولاية مثلاً اسمها كليفلاند). تمثل هذه الجامعة اندماج جامعة كاس وجامعة ويسترن ريسيرف الذى تم عام ١٩٦٥ ولكن تاريخ هذه الجامعة يعود إلى حوالى ١٨٢٤ .

نأتى إلى الكليات العليا :

بالدوين ولاس	أنشئت عام ١٥٤٨
كايهوجا	عام ١٩٦٣
ديك	عام ١٨٤٨
معهد كليفلاند للفنون	عام ١٨٨٢
معهد كليفلاند للموسيقى	عام ١٩٢٠

(٣)

« البلان ديلر » هى كبرى جرائد أوهايو ، وهى الجريدة التى استعيض بها هنا عن الأهرام القاهرية كل صباح . وتقع هذه الجريدة فى مائة صفحة على الأقل كل يوم ، فلا تقل صفحاتها الرئيسية عن ٥٠ صفحة عدا ملاحق الاعلانات الملونة التى تبلغ ثلاثة أضعاف هذا الحجم ، تتضخم إلى أكثر من هذا بكثير فى أيام الأحاد بالطبع ، ولكن صفحات كاملة من هذه المائة مخصصة بالطبع للإعلانات ؟ التى لا بد أن تكلفتها أقل بقليل من التكاليف المناظرة فى مصر . وإلا فكيف بالله عليك تجد صفحة كاملة قد أفردت للإعلان فقط عن مسحوق غسيل وأنواعه وعبواته المختلفة مثلاً .

استطيع أن أقول لك اننى كنت اطالع هذه الجريدة كل يوم على مرتين ففى حوالى الساعة السابعة وخمس دقائق وقبل أن تتحرك سيارة ربه البيت اطالع

بسرعة أربعة أو خمسة مواضع من الجريدة . أطالع آخر تطورات الحياة الدولية وبصفة خاصة حرب الخليج . أو قل بقايا حرب الخليج من حرب أهلية في العراق إلى أسرار تتكشف في الولايات المتحدة ، هذا في عناوين الصفحة الأولى ، ثم أطالع في نهاية الملزمة الثانية من الصحيفة أنباء الطقس وموعد غروب الشمس أى موعد الإفطار الرمضاني!! وفي الملزمة الرابعة ألقى نظرة على السعر الخاص بالجنيه المصرى أمام الدولار في الجزء المخصص لأسعار العملات الأجنبية ، والجنيه المصرى على أية حال عملة أجنبية بالنسبة للدولار . دعك من كون العملة الأجنبية عملة صعبة أم لا فهذه تعبيرات مصرية سيكولوجية!! وفي الإعلانات المبوبة ألقى نظرة على الركن الخاص بأجهزة الكمبيوتر .. وفي صفحة برامج التلفزيون ألقى نظرة أخرى على برامج القنوات الرئيسية، وكل نظرة من هاتيك قد لا تكلفني عشرين ثانية كما تعلم. ولكن تصفح المواضع المختلفة حتى تصل إلى ما تريد هو ما يأخذ منك الوقت .

بعد عودتي من المستشفى أقرأ على مهل هذه الجريدة المحترمة ، صياغة الصفحات الأولى لا تختلف كثيراً عن صياغة «الأخبار» القاهرية ، أما العناوين فأميل إلى «الجمهورية» منها إلى الأهرام أو الأخبار. أسماء المحررين والمراسلين تحظى باحترام تام من حيث أبنائها والعناية بها. وكثير من المواد لا تحمل توقيعاً على الرغم من إنها عصارة فكر وجهد مبذول. صفحة الرأي في الداخل لها رئيس تحرير مسئول ، واسمه موضوع فيما يسمى بالترويسة مع الناشر والمدير العام ورئيس التحرير. بل إن الترويسة نفسها موضوعة أعلى صفحة الرأي ولا في الصفحة الأولى . الاشتراك في الجريدة أسبوعي، ويبدو أن الاشتراك السنوي الموجود عندنا لم يعد يناسب روح الحياة السريعة المتغيرة وإن كان سيظل مناسباً لمصر..

يعجبني في هذه الصحيفة اهتمامها البارز بالكتب الجديدة والحياة الثقافية على وجه العموم، وللصحيفة ملحق أسبوعي لبرامج الإذاعة والتلفزيون يتناول كل شيء من البرامج بالتفصيل، ثم إذا هي تتكرر كل يوم في الصحيفة في صفحة كاملة نصفها الأيمن للقنوات السبعة والعشرين (تسعة فوق تسعة فوق تسعة) والنصف الأيسر يلقى الضوء على برامج مختارة وعلى برامج الراديو .

وأحب أن أذكر لك أنني خرجت من مطالعة هذه الصحف الأمريكية بانطباع أن إعلاناتها إعلانات وقتية بمعنى أنها تؤدي الغرض الوقتي ليس إلا. في أوكازيون يوم السبت تجد صوراً لكل ما هب ودب، والأسعار فوقها، واسم المحل وعنوانه، وكان الله يحب المحسنين . طبعاً الصور منظمة وجميلة والأسعار مكتوبة بأبناط بارزة ولا بأس من فتاة تضحك أو طفل يصيح .. ولكن الإعلان كله على بعضه من لزوم الشيء. مجرد خطوط ، ومجرد تنسيق، وليس هناك مساحة لما يسميه فنانون إخراج الصحف براحة العين، وإنما هو استغلال للمساحة المتاحة بطريقة بدائية. طبعاً هم يعرفون ذلك وأعتقد أنهم يأخذون الإعلان من صاحبه كما يجهزه، هذه مساحة ٣٠×٥٠ مثلاً فالمعلن يحضر لهم الإعلان جاهزاً إلى درجة أن الأفلام مفصولة ألوانها، وهم يطبعونها هكذا.

ولا أبالغ إذا قلت لك إنهم في جريدة السبت أو الأحد يتحفونك بعشرات الصفحات الإعلانية الملونة ذات الأحجام المتنوعة . وليس لها أرقام اللهم إلا تسلسل خروجها من ماكينات التوضيب فوق بعضها.

والعاملون في الصحافة يفهمون المسألة في منتهى البساطة فالصحيفة تستغل انتشارها وجمهورها بأن توزع هذه الإعلانات لأصحابها مقابل

خروجها مع الصحيفة من دار الجريدة ودخولها معها البيوت. والمعلنون بالطبع سعداء بما يدفعون للجريدة فهم سيطبعون الإعلان أيما كان الوضع. وسيدفعون غالباً من أجل توزيعه بالبريد أو من أجل بث الصببة الصغار به على أبواب المساجد والمدارس كما تفعل البلاد النامية.

وقديماً ، و في مطلع الصحافة المصرية وقبل حوالى قرن من الزمان كان في مصر صحيفة توزع بالمجان إذ تعتمد تماماً على الإعلانات. هنا في كليفلاند توجد أكثر من صحيفة من هذا النوع. ولكنى أعتقد أنه لا يزال من الأوقع أن تكون الصحيفة بثمن رمزى. ومع هذا فإن جيلاً من مديري الصحف في مصر لا يكاد يقدر نعمة «الثن الرمزى» على الصحيفة ويريد أن يشتط بأسعار الصحف ما أمكنه ذلك مع أنهم يعلمون تماماً أنه مهما رفع سعر الصحيفة فلن يفي بتكاليفها.

يعجبني في «البلان ديلر» أيضاً تلك الكلمات الرصينة التى تتضمنها صفحة الرأى بل عناوين هذه المقالات نفسها حيث التعقل والنظرة البعيدة بعيداً عن عبارة الرأى الشائع . وعبادة الرأى الشائع مأساة خاصة إذا كان هو رأى الشارع.

ويعجبني أيضاً أن الجريدة لا تستنكف شأنها شأن الصحف الأمريكية أن تعطى لحرب الخليج خمس صفحات أو ست صفحات كاملة ، ولكنى أتألم كثيراً للصور التى تنشرها عن خراب الكويت أو تشرد الاكراد أو ظلم نظام العراق لشعب العراق ولجيش العراق . يعجبني أيضاً أن الجريدة خصصت للكاريكاتير صفحة وجزءاً من صفحة أخرى وأنها تنشر صوراً كاريكاتيرية لأكثر من عشرين رساماً وكنت أتعجب هل كلهم معينون ويتقاضون رواتب أم مثل الذين يرأسلون مصطفى حسين في الأخبار ؟ وحين زرت الجريدة

سألتهم وعرفت أن هناك نقابة لرسامى الكاريكاتير وأنهم يشترون من هذه النقابة هذه الرسومات.

توزع «البلان ديلر» ٤٣٠ ألف نسخة يومياً وفي الأحاد يرتفع توزيعها إلى ٥٧٠ ألف نسخة، وهى بذلك الجريدة الخامسة عشرة على مستوى الولايات المتحدة. مما يعنى نجاحاً حقيقياً لها إذا تذكرت أن كليفلاند هى تقريباً المدينة الثانية عشرة من حيث ترتيب السكان. لهذا فإن البلان ديلر فخورة بأنها الأولى في الاستحواذ على سكان منطقتها إذ يقرأها ٥٨٪ من قراء الصحف في الاقليم الذى تصدر فيه. وهى الأولى كذلك في الاستحواذ على سكان منطقتها فيما يتعلق بعددها الأسبوعى حيث يقرأها حوالى ٧١٪ من هؤلاء. وفي هذه المكانة تليها بفارق بسيط جداً (٧١٪ أيضاً) الواشنطن بوست.

ومبانى البلان ديلر تم بناؤها في ١٩٢٠ على سبعة هكتارات، في خطة المستقبل أنها ستمتد إلى ٥٠ هكتار إضافية.

ويعمل في هذه الصحيفة ألف وثمانمائة فقط من بينهم ٣٧٠ صحفى ومعلق وسأذهلك حين أقول لك إن كل هؤلاء الصحفيين يعملون جميعاً في صالة واحدة تضم ما يزيد على ٢٠٠ كمبيوتر!!.

طبعاً هذه التى اسمها صالة هى الدور الثانى كله. ربما تبلغ مساحتها مساحة أكبر من صالة تحرير الأهرام ولكنها ليست بجمال صالة تحرير الأهرام.. إنما هى مزدحمة ومكدسة ومقبضة تماماً أيضاً.

منذ ثلاثين عاماً كان عدد العاملين في البلان ديلر ١٨٠٠ أيضاً، ولكن مع اختلاف النوعية. فقد كان هناك ٥٠٠ عامل في قسم اللينوتيب وحده وكان

هناك ٢٥ آخرون في قسم السيترينوتيب. اليوم ليس هناك أحد في هذين القسمين لأنه لم يعد لهما وجود .

مدير الشؤون العامة يكمل هذا العام ثلاثين عاماً من العمل في البلان ديلر، وهو يرى أن في كليفيلاند مؤسستين عالميتين : الكلينيك التي يأتيها الناس من كل مكان، وشركة البترول الكبرى التي لها فروع في كل دولة كأنها سفارات . وهو سعيد جداً بالعلاقة بين كليفيلاند كلينيك وبين الصحيفة. وهو يروى لي كيف ضيعت الصحيفة أكبر خبطة صحفية في العام الماضي حين حصل محررها على تصريح من د.عاطف صدقي رئيس الوزراء (الذي كان يجري فحوصاً في كليفيلاند كلينيك) بأن مصر ستحارب في أزمة الخليج مع الحلفاء . ولكن رئيس التحرير المسئول يومها لم يبرز التصريح لا لشيء إلا لأن الذي حصل عليه محرر إقليمي في كليفيلاند. وفي اليوم التالي كانت عناوين صحف العالم كلها مخصصة لهذا الموضوع بعد تصريحات الرئيس مبارك .

كان من حظي حين زرت البلان ديلر وطففت بين أرجائها أن التقيت بكبير المحررين وبرئيس القسم الفني وبمدير الانتاج وقد أطلعوني جميعاً على كل خططهم وماضيهم ولكني فيما يتعلق بكتابي هذا لا أجد نفسي قادراً على التوسع في رواية تفاصيل العمل الصحفي. وفي ذات الوقت لا أستطيع منع نفسي من تسجيل بعض اللحظات السريعة عن هذه الجريدة . و تضم هذه الجريدة كما قلت لك ٣٧٠ صحفياً وليس فيها إلا صالة تحرير واحدة تتسع لكل هؤلاء ولحوالي ٢١٠ كمبيوتر شخصي أمامهم يستطيعون من خلالها الاتصال بالمندوبين وكتابة ما يريدون وتنظيم ما يسمى بسكرتارية التحرير . مطبعة الجريدة لا تبدأ العمل إلا بعد التاسعة مساءً وتستمر حتى الرابعة والنصف صباحاً — وفي أيام السبت والأحد تبدأ المطابع مبكرة منذ السادسة لطباعة الملاحق!!

(٤)

في كليفيالاند أعرق أوركسترا سيمفوني أمريكي داومت على الاستماع إليه في كل أيامي من خلال الراديو وإن لم أسعد بحضور إحدى حفلاته ولكنني حضرت مع أحد الزملاء الفرنسيين حفلة موسيقية في جامعة كيس ويسترن الحفلة تحت شعار «موسيقى الجاز في الشابل» .

الفرقة مجموعة من طلاب الجامعة . اصطلاح طلاب الجامعة هنا لا يقتصر مثل مصر على طلاب مرحلة البكالوريوس ولكنها تعني كل الطلاب طلاب الماجستير والدكتوراه وهذا الفرنسي الذي يقود الفرقة طالب ماجستير . وقد بدأت الحفلة في الثامنة و انتهت حوالي العاشرة .. أما عدد الحاضرين فقليل .. ولكن أحداً منهم لا يسلك سلوكاً يجعله أقل من مستوى الحضور .. العازفون سعداء .. والمستمعون سعداء .. وينتهي الحفل فينصرف كل ومعه سعادته إلى حال سبيله .

(٥)

هل ذهبت الفلاتس ؟ لا بد أن تذهب الفلاتس ما دمت في كليفيالاند! أم لم تذهب الفلاتس بعدا! ستكون في غاية السعادة إذا ذهبت الفلاتس. هكذا تعاقبت التعليقات مرة بعد أخرى من العائلة التي أسكن بيتها ومن الزملاء الأطباء في الكليينك، بل ومن الزميل الأرجنتيني الذي كان مثلي يسكن في هذا البيت في أغسطس الماضي وجاء لزيارتنا ليوم واحد.

قلت لنفسى لا بد أن أذهب إلى الفلاتس تحفة كليفيالاند، الطريق طويل ربما لأنى قادم من شرق المدينة، والفلاتس في غربها ولكنه بالفعل بعيد.

القنطرة التي تعبر النهر جميلة إلى أقصى حد ، فخامتها لا توصف ، تأمل أن هذه المعجزات بنيت منذ مائة وخمسين عاماً ونحن في مصر لا نزال ننتشى عند افتتاح كوبرى هنا أو هناك على النيل العظيم ونقول ساعتها : ويعد هذا أطول كوبرى على النيل، وأحياناً أعرض ، وأحياناً نتواضع فنقول أنه يعبر النيل عند أعرض نقطة في عمره . كوبرى بنها على النيل التي تغنى له داليدا وهى في باريس « على كوبرى بنها يانور عيني منديل حبيبى طرف عيني» يتبرأ تماماً من أغنية داليدا ويؤكد للرائح والغادى أنه لم تقع عليه هذه الحادثة أبداً ، وأنه إذا كان ولا بد أن منديلاً طرف عين محبوبه فقد يحدث ذلك على كوبرى آخر إلا كوبرى بنها الاستراتيجية الذى تقف أمامه السيارات في حالة انتظار وجمود ربما لنصف ساعة .. التيار واقف إذن والمنديل لا يتحرك وبالتالي لا يطرف عيناً حتى وإن كانت عين داليدا .. كوبرى بنها هذا العظيم الذى كان أعظم كبارينا استراتيجية ، الذى بنى في عهد الملك فؤاد حوالى ١٩٣٢ يتواضع أمام هذا الكوبرى البسيط على نهر بسيط في بلد بسيط ومع هذا فنحن فخورين بأننا دولة زراعية .. وبلد النيل . وأن عندنا طرقاً زراعية وطرقاً تعبر النيل.

قد تظننى ياسيدى في حاجة الآن إلى الاعتذار عن هذا الاستطراد الذى لامبر له .. لكن عذرى أنى كنت أحب أن أصور لك حالتى النفسية وأنا ذاهب إلى الفلاتس بأقرب ما يكون التصوير إلى الحقيقة .. وها أنت ترانى الآن وقد انتابنى الشعور بالتواضع .. وقلت لنفسى والآن سنرى الفلاتس حيث تتواضع أمامه كل فسادتنا وكازينوهاتنا ونوادينا التى على النيل الساحر في القاهرة.

لن أحدثك عن الفلاتس الذى كانت مضيفتى فخورة به وهى تطأ الأرض ولكنى أؤكد لك أن أى مقهى نيل متواضع في أى قرية من قرى مصر العامرة

أكثر حياة ورقياً وفناً وفندقة من هذا الفلاتس الميث الصامت .. عند هذا الحد زال تواضعى وبدأت أفهم لماذا يقال إن مصر هى بلد السياحة والمتعة الجميلة. هى البلد الذى لا بد للسائح أن يراه حتى وإن كانت الكبارى التى فيه لا تطرف عيون المحبوبات ، فإن الكباريات تطرف عيون المحبوبات . سوف تتهمنى ياسيدى بالتحامل على الفلاتس قرة عين أهل كليفيالاند .. لك أن تتهمنى ولكنى سأذكر لك كل مزايا الفلاتس.

هناك فى جانب واحد من الفلاتس توجد شجرة مستعارة من ذات الورق العريض يسمونه Bird of paradise إلى جوارها شجرة أخرى من نوع Oleander هذا الشجر يحتوى على مادة مخدرة .. ربما لا يعرف الطيبون من أمثالك وأمثالى أنه يحتوى على هذه المادة المخدرة ويكتفون بالإعجاب بشكله المتناسق.. أما أن الشجرتين مستعارتين فلأننا كنا فى مارس ولا يزال الجليد هو صاحب السيادة .. ولما تبزغ شمس الربيع بعد ... هذه ميزة من مزايا الفلاتس .

الميزة الثانية إن للفلاتس مساحة واسعة لانتظار السيارات. ولكن هذه الميزة تتبخر (أو تتضاعف فى نظرك) إذا علمت بقية قصتها .. فهذا الجراج يديره مجموعة من (البلطجية) المحترمين .. وصلنا إليهم بسيارتنا فإذا بهم يقولون : لا توجد أماكن بينما الأماكن فسيحة أمام ناظرينا .. فتحت مضيفتى محفظتها الصغيرة ، وشاهدوا أوراق النقد من فئة الدولارات الخمسة .. أو قل على طريقة المصريين من فئة الشلن .. فقال هؤلاء إذا كان الأمر كذلك فهناك أماكن .. أخذنا التذكرة ومضينا بالسيارة قرب باب الفلاتس هناك أقبل علينا من كشكة الزجاجى حارس آخر .. أخذ السيارة منا بعد ما أخذنا تلفونها. و انطلق بها يضعها حيث يريد للنظام أن يتم .. فلما عزمنا على المغادرة لحنا من كشكة الزجاجى وأتى لنا بالسيارة حيث وقفنا بالباب.. كان الدكتور رفعت

حواس في محطة مترو الأنفاق ببائيس كثيراً ما بلغت نظري إلى حقيقة أن المترو يقف بحيث يكون باب عربة الدرجة الأولى (التي هي في الوسط منه دائماً) أمام فتحة الرصيف مباشرة بحيث لا يتعب (سعادة البية) في ملاحقة عربات المترو!! . الميزة الثالثة في الفلاتس أنه لا يتقاضى منك إلا الإتاوة التي هي غير كافية لأن تكون حداً أدنى لفرد واحد!! .

(٦)

صحيح أن في كليفلاند وحولها كثيراً من الأحياء الراقية والمواقع المتميزة شبه الآمنة ولكن كل ذلك لن يبقى في ذهنك إلا مرتبطاً بهذا الرعب من هذه الجرائم التي لا تستحي وهي تفرض نفسها كل صباح في عناوين صحف الصباح وكل ساعة في مقدمات نشرات التلفزيون المحلية.

كان أحد أصدقائنا قد جاء إلى كليفلاند مشعباً بما فيه الكفاية بكل القصص الحقيقية عن الإجرام هناك .. وحين وصل في حوالى الساعة الثالثة صباحاً إلى ما كان يسمى بفندق الجامعة .. وجد حارساً أسود ليس من سلطته أن يتيح لزميلنا أى شيئاً إلا أن يبقى مع حقايبه في المدخل حتى يأتي موظف الصباح صاحبنا يسأل الحارس هل هناك جرائم قتل ، والحارس يجيبه نعم كثيراً ما أكون في طريقى فيحدث هذا أمامى هنا مثلاً، والرعب يستبد بصاحبنا ولكن ماذا في وسعه أن يفعل ؟ يستدير الحارس فيلاحظ صاحبه أن في جيبه شيئاً ما يبرز في نهايته قبضة معدنية تماماً ك تلك التي في المطواة السمسة في مصر بقرن الغزال .. يقرأ الشهادتين وينتظر الموت، وفيما بعد يكتشف مع الأيام أن هذا الشيء الذى في نهايته قبضة معدنية ليس إلا المشط الذى يستخدمه الزوج..

ومن الطريف أن صديقاً ذهب إلى الحلاق فسأله هل تريده على هيئة مربع أو على هيئة دائرة ؟ وبجسن نية يظن صاحبنا أنه يسأل على عادة أصحاب

صالونات الحلاقة في مصر عن الهيئة التي يكون عليها شعره في مؤخرة رأسه، ويجيب على هيئة دائرة .. فيفاجأ زميلنا في النهاية بشعره وقد تحول إلى الهيئة التي يراها في شعر الزنوج صندوق مدور من الشعر كتاج فوق رأس شبه أصلع!!.

(٧)

في الاسبوع الاول من إبريل كان علينا أن نقدم الساعة فقد بدأ التوقيت الصيفي في مدينة كليفلاند، لعلك تظن أن الربيع قد حل على المدينة على الأقل... لا ياسيدى فلا يزال الجليد يكسو وجه هذه المدينة ببياض محبب إلى النفس ولكنه أحيانا غير مريح بالطبع . ولكنك لا بد أن تلتزم بالتوقيت الصيفي ! في عز الشتاء!! إلى هنا وليس في الامر شيء . ولكن الطرفة الكبرى ياسيدى أن مسألة التوقيت هذه من المسائل الخلافية بين الولايات، فهناك ولايات تقدم الساعة وولايات لا تقدم الساعة .. وهكذا تصبح في حيرة من أملك وأنت تخاطب ولايات أخرى بالتليفون.. فلا بد أن تحسب أولاً فروق التوقيت الموجودة في الولايات المتحدة الأمريكية فالتاسعة في لوس أنجلوس هي الثانية عشرة في نيويورك ثم تنظر هل تلتزم هذه الولاية بالتوقيت الصيفي أم لا .. فإذا كانت معك على نفس خط العرض ولا تلتزم بالتوقيت الصيفي فهي لازالت في السابعة على حين أنك في الثامنة، لا تبتئس إذن إذا لم تجد الموظفين يردون عليك في ذلك المستشفى العظيم في الولاية الأخرى .. وربما يكون هناك فرق طبيعي في التوقيت بحكم خطوط العرض فإذا به يتلاشى مع تقديم الساعة في ولاية أكثر بعداً عن الأطلنطى تقدم ساعة حين تحادثها من ولاية على الأطلنطى لم تقدم الساعة.

لهذا فمن الطبيعي أن تجد الناس يسألون بعضهم في التليفون كم الساعة الآن عندهم ؟ وهم ينظرون في ساعاتهم! على أن أطرف ما في موضوع التوقيت

الصيفي ما حكاها لنا الدكتور أسامة سليمان من أن بعض المدن الصغيرة في كثير من الولايات لا تلتزم في كثير من الأحيان بتقديم الساعة رغم التزام الولاية كلها بذلك !! لماذا أيها السادة ؟ فيقولون لك حتى لا نزعج البقر الذي تعود على تناول طعامه في ساعات معينة في الصباح، فإذا نحن نغير له مواعيده بحكم أن الساعة تتغير في الظاهر فقط . يقصدون الساعة البيولوجية التي ساعدتكم عنها في موضع آخر من هذا الكتاب.

ها هو الربيع يبدأ في كليفلاند وها هي الصحف تزف للناس في إعلاناتها أسعاراً متعددة للشركات التي تتولى تنسيق الحداثق وزرع الشتلات وها أنا اليوم استمتع طوال الصباح بمشاهدة هذا الجنائني النشيط ومعه الشتلات الجميلة للزهور الصفراء والحمراء والزرقاء ، يحرق الأرض بمحراث كهربائي يدفعه بيده ليس إلا .. صوت مزعج ولكن لا بأس فكل الآلات الأمريكية مرتفعة الصوت على ما يبدو ، ثم هو ينتقى الشتلات وينتقى لها أماكنها المحددة سلفاً وها هو المنظر يتغير في أقل من ٢٤ ساعة من شتاء تام إلى ربيع تام !!! صحيح أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة .. فهذه الطبيعة ، الجميلة طبيعة حقاً ولكنها غرس الإنسان والطبيعة ، والإنسان من صنع الله الذي أنقذ كل شيء .

الفصل الرابع في بيت عائلة أمريكية

(١)

لا أعرف بالضبط هل أقع تحت طائلة قانون العقوبات الأمريكي إذا أنا تحدثت بشيء من التفصيل عن البيت الذي عشت فيه مع أسرة أمريكية قرابة شهرين في كليفلاند على الرغم من أن الأسرة تعلم تماماً أنني سأكتب عنها وعن بيتها.. وربما تعلم على وجه التقريب كثيراً من مضمون هذا الذي أكتبه.

كنت حريصاً عند الترتيب لهذه الزيارة أن أقيم في بيت عائلة أمريكية لأن قضاء مدة طويلة في فندق ليس بالأمر التي تتحمله نفسية أى إنسان سوى حتى وإن تمنى بعض الناس ذلك في ساعات ملل من مسئوليات البيوت!!

هذا هو السبب الثالث أما السبب الأول فهو أنني كنت أريد ما يريده كل إنسان على ظهر الأرض من أن يستكشف حياة الأمريكيين في بيوتهم بعد هذه الصور المتلاحقة التي تطلعنا عليها جميعاً السينما الأمريكية عن البيت الأمريكى الفاخر والأسرة الأمريكية المفككة. أكاد أجزم ياسيدى ولكنى متأكد من أنك تصدقنى إذا قلت لك بدون يمين إن هنا أمريكيين أيضاً يريدون أن

يشاهدوا على الطبيعة صورة ذلك البيت الأمريكى التى تقدمها السينما الأمريكية .. تماماً كما أن من المصريين مَنْ يريد أن يتأمل حياة القاهريين الذين تصورهم السينما المصرية وكأنهم لا يعرفون شيئاً إلا كبارياتها شارع الهرم. هذان هما السببان الأول والثالث، أما السبب الثانى فسبب شخصى بحث، فقد كنت فى حاجة إلى فترة من الاستجمام البدنى والذهنى والاجتماعى أقضيها فى قراءة القرآن ومذاكرة كتب الطب وكتابة بعض التجارب الذاتية فقط، وكنت أعتقد [ويبدو أننى كنت مصيباً فى هذا الاعتقاد] أن وجودى فى بيت غير بيتى كفىل بهذا .. ولهذا كنت عازماً وقد نفذت ما عزمت عليه على ألا أقود سيارة ، أو أخرج بليل أو أتحدث فى التليفون إلا فى أضيق الحدود. وعلى قدر ما أسعدنى أن تحقق لى هدفى هذا رغم كل الدوافع والمغريات بشراء سيارة أو قيادة سيارة أو استئجار سيارة، فقد أسعدنى بالطبع أنى خلوت إلى نفسى فترات متتالية استطعت أن أكتب فيها ضمن ما كتبت هذا الكتاب.

ولكنى أريد أن أحدثك قبل هذا عن أول الأزمات فى الوصول إلى منزلى الجديد. ذلك أنه فى صباح الأربعاء السابق على سفرى تلقيت بالتكس فى الزقازيق رسالة فحواها أن العائلة الأمريكية لن تكون قادرة على استقبالى فى الموعد الذى حددته شركة الطيران المصرية فى الثانية عشرة وسبع دقائق بعد منتصف الليل ولهذا فإن على أن أحاول تغيير موعد وصولى إما مبكراً يوم الجمعة وإما فى صباح اليوم التالى يوم السبت. أو أن أقضى ليلة فى الفندق وقد حجزوا لى من باب الاحتياط ليلة واحدة يلغى حجزها تلقائياً إذا لم أحضر حتى الثالثة صباحاً .

يمر أمام عقلى شريط الذكريات المقروءة حين كان المصريون يسافرون على مصر للطيران فقط ويضطرون لكثير من التغيرات غير المنطقية فى

رحلاتهم من أجل الالتزام بمصر للطيران. وها هي مصر للطيران الناجحة الرابعة تعود فتضطرنا إلى مثل هذا في مطالع العقد الأخير من القرن العشرين. فهي لا تسافر أمريكا إلا يومى الجمعة والأحد. وإذا فانتك طائرة الأحد ضاع عليك أسبوع كامل في أمريكا لأنك حين تصل أمريكا الجمعة في الرابعة والنصف مثلاً تكون عطلة الأسبوع قد بدأت هناك. ومصر للطيران تدخل أمريكا من باب نيويورك وهو أصعب أبواب الجنة الأمريكية. يكفيك منه أن تقف في طابور لا يكف عن الانتشاء والانحناء يميناً وشمالاً بين مسارات حدودها بحيث يقف فيه ألفان أو يزيد من البشر. تتعجب للرقم «ألفان في طابور» نعم. هذان الألفان هم ركاب أربع طائرات فقط. تسألنى ومن أين تأتى الطائرات الأربع فأذكرك ياسيدى أن هذا المطار يستقبل طائرة كل دقيقة. لا تتعجب ياسيدى من هذا واستمر معنا في رحلة مصر للطيران. النتيجة بالطبع أنك لن تستطيع أن تصل من طائرة مصر للطيران إلى أى مطار أمريكى آخر إلا بعد وقت وعناء. وبالتالي فإنهم في مصر للطيران يحتاطون ويحجزون لك موعداً على الطائرة التى تتحرك من نيويورك بعد وصول طائرتهم بست ساعات على الأقل!! ، فإذا خطر ببالك وأنت في القاهرة أن تطلب إليهم أن يضعوك على طائرة أسبق موعداً أخلصوا لك النصح بعدم التعجل في مثل هذه المواقف لأنهم لا يضمنون الظروف. مع هذا كله لست (مع أنى أنا العجول الذى تمثله عجلته عيباً بارزاً في شخصيته الحافلة بالعيوب الأخرى) بالذى يتقبل مثل هذه الخطوات البطيئة .. وماذا يبقينى أنا في هذا المطار الكئيب الذى هو في الحقيقة بمثابة مجموعة من الدول (لا دولة واحدة) .. وأنا لا أبالغ في هذا الوصف. فلكل شركة من الشركات في هذا المطار شبه مطار مستقل، ولكى تتحرك من مطار إلى مطار هناك أتوبيسات لذلك ومسارات.

وإذا كنت قادماً من مدينة نيويورك أو خارجها بالسيارة إلى المطار ودخلت بسيارتك في مسار خاطيء فلنك لكى تعود إلى المسار الصحيح تقضى وقتاً طويلاً يكون كفيلاً بضياح موعد طائرتك عليك.. والعودة في اليوم الثانى كى تستقل طائرة الغد.. (وفى حالة مصر للطيران العودة بعد خمسة أيام) .. ها هى طائرة مصر للطيران تقوم من باريس متأخرة .. إذن سنصل نيويورك متأخرين ولكن قائدها العظيم يصل فى مواعده !! أطلب استثنائى من الطابور لانى أريد اللحاق بطائرة أخرى أزف موعدها ... وهامم يجيبونى إلى طلبى بعد أخذ ورد.. وهأنذا أمام مكتب شرك PANAM A فى صالة الوصول لا أحد فيه، ولا أحد يرد على التليفون المخصص للاستعلامات .. وهأنذا أمام مكتب مصر للطيران، ولا أحد يستجيب من مكتب PANAM ... والحل الذى تسوله لى خبرتى فى السفر أن انطلق بحقائى من دون أن أسلمها على السير Check in وأن أكون جاهزاً تماماً لصعود طائرة بدون أن أسلم حقائى مقدماً، وأن أتعهد بأخذها فى طارة PANAM وأن يتقبلوا هم هذا الوضع لأنها بحجمها الذى دبرته لن تزعج متن الطائرة . كل ما يتطلبه هذا الحل هو عشر دقائق من الجرى أو السير السريع (حتى أصل من الدولية مطار الشركات الدولية الصغيرة المشتركة فى مطار أليطاليا إلى المطار الأفخم للشركة الأمريكية PANAM) فى صقيع نيويورك وعواصفها وأمطارها لا بأس من ذلك، وأن أكون حاملاً حقائى ولا بأس أيضاً .. مادام ذلك يوفر لى ست ساعات من الانتظار الممل فى مطار نيويورك الدولى J.K. Kennedy ولا تقل عنه غير جى أف كيه .. ويوفر لى أيضاً راحة بعد هذه الساعات بأن آوى إلى فراش بدلاً من العذاب المتصل بعد رحلة طيران جاءت بعد ليلة لم أر النوم فيها فى القاهرة إلا متأخراً جداً .

خطر ببالى أنه أحياناً يكون من حظ الاشخاص الذين ترغب شعوبهم أو دولهم فى تخليدهم أن تطلق أسماءهم على مؤسسات يكثر ترداد اسمائها

فيكونون محظوظين بكثرة التردد وأحياناً أخرى لا يكون من حظ هؤلاء أن تطلق أسماؤهم على منشآت يكثر تردد اسمائها مع شيء من اللعنة والملل والضيق كما هو الحال مع كل زائر لأمريكا لا بد أن يعلن كنيدي إذا مرّ بمطار كنيدي وأن يكفر من سيئات الدون جوان. أو مع زائر القاهرة حين تضطره الظروف إلى طريق صلاح سالم حين تصيبه لعنة الازدحام والتوقف.. ماعلينا!!.. هأنذا أصل إلى مطار « بان ام » وأنجح بمزيد من التوفيق في إقناع السيدة المسئولة عن الترتيب في وضعي على الطائرة المزدحمة، فيما بعد وجدت أن الطائرة حين أقلعت لم يكن فيها مكان واحد خال... ربما تعاطفت معي هذه السيدة لان اسمها كان مدام محمد... زوجها محمد وكفى... هل هو مصري أو أمريكي أو أفريقي أو عربي لا أعلم، هل أسلم أو ولد مسلماً لا أعلم. كل ما أعلمه هو أن اسمها الأخير على البادج محمد ا .

لا بد من هذا التليفون لا تصل بكليفلاند ليرسلوا السائق لاستقبالي في المطار في موعد وصول الطائرة .. ولكي تستعمل التليفون لا بد من العملات المعدنية. ولا بد من أجل الحصول على العملات المعدنية من ترك حقائبك جانباً والذهاب للحصول على العملات الأجنبية من الكاشير المخصص لذلك في هذا المطار وفقني الله وأدركت الموظفين في كليفلاند قبل أن يتركوا مكاتبتهم ويغادروها... ووعدوني من كليفلاند بإرسال السائق!! . ينتابني الآن الغرور لنجاحي في كل هذه الخطوات، بل وأمامي بعد هذا كله فسحة من القوت حتى تقلع طائرتي إلى كليفلاند أستطيع أن أبدأ الآن الحوار الأمريكي حول كل ما يهمني الحوار عنه.

.....وتصل الطائرة إلى كليفلاند وأجد الليموزين في انتظارى على نحو ما حدثتكم في مقدمة هذا الكتاب ، والسائق يقول لى إننا سنذهب للفندق حيث أقضى هذه الليلة وفي الصباح أذهب المنزل المفترض أننى سأقيم

فيه . لم أسأل السائق بالطبع لماذا؟ فالمنطق يقول إنه لا بد أن هناك شيئاً في الأمر وأنهم قد رتبوا الأمور على هذا النحو، مادام السائق قد جاء في الموعد المحدد . ذهبنا الفندق وتركنى السائق..، أنا الآن أمام موظف الإستقبال يبحث عن الحجز الذى باسمى فلا يجد، وقبل أن أطلب إليه أن يعاود البحث كان السائق نفسه واقفاً أمامى مرة أخرى يعتذر لانه عندما أعطى لهم التمام باللاسلكى ، قالوا له إن الطلب الموجود عندهم أن يوصلنى إلى بيت الضيافة وليس إلى الفندق. ورغم أن المسافة بين الاثنين حوالى ٢٠٠ متراً إلا أن السائق عاد وحمل حقائبى وتحرك بى وبالليموزين حيث وجدت الحجز الخاص بى بالفعل.

انصرفت إلى سريرى فى حوالى الساعة التاسعة بعد وجبة خفيفة فى ربع ساعة، وحمام دافئ فى ربع ساعة أخرى ، وخمس دقائق أمام التلفزيون ، وخمس دقائق أخرى فى فتح الحقائب وترتيب ما قد احتاجه من حاجياتى. وفى الثانية عشرة تماماً وقبل أن تنقضى ثلاث ساعات على نومى كنت استيقظ بسبب الساعة البيولوجية التى فى أجسامنا .. هذه الساعة التى لاتعرف فروق التوقيت ولا يمكن تحريك عقاربها بهذه السهولة التى ضبطنا بها ساعتنا حين وصلنا مطار باريس أو مطار نيويورك، فهذا الجسد يستيقظ فى القاهرة ما بين السادسة والسابعة ولا يتأخر عن السابعة مهما كان منهكاً.. فلا بد أن يستيقظ فى نيويورك فى الثانية عشرة التى تناظر السابعة فى القاهرة.. مهما كان منهمكاً.. فليستيقظ ثم لينم بعد ذلك لا بأس ، ولكن لا بد له من أن يستيقظ ١١. وجبة خفيفة أخرى ومحاولة للحديث إلى القاهرة بالتليفون ثم ذهاب فى النوم العميق. فى الرابعة صباحاً استيقظت مرة أخرى وبذلت محاولات للنوم حتى السابعة بلا جدوى ولم يكن بد من أن استيقظ وافتح الستائر ، ومنذ أن دقت الساعة الثامنة صباحاً وأنا أحاول الاتصال بالعائلة الأمريكية حتى اتفق معها على الموعد الذى يمكننى فيه أن أحظى باستقبالها لى

.. وفي كل حين تجيء سماعة التليفون بصوت مسجل يقول إن هذا الرقم قد قطعت عنه الحرارة ، نفس الرد الذى سمعته منذ كنت في نيويورك.. حتى إذا كانت الساعة العاشرة تماماً كانت العائلة هي التي تحدثني تليفونياً، سائلة عما إذا كنت قد استيقظت.. إذن فهي هي العائلة لا تزال في كليفلاند. بعدما كنت قد بدأت مع زميلي المقيم في كليفلاند الدكتور حسام الشرقاوى البحث عن مكان بديل أقيم فيه.

نعم أنا الذى في انتظارك وأنا الذى عانيت من البحث .. لا علينا .. وماذا عن تليفونكم .. قالت العائلة إنها تستعمل شريط الإجابة الأوتوماتيكية .. انتابنى العجب ، هل يضع إنسان في شريط الإجابة عبارة تقول إن تليفونه قد فقد الاتصال .. ولكن ليس من حقى أن أتعجب مبكراً من مثل هذا التصرف ، فأنا مازلت رغم كل شيء ضعيفاً أجنبياً ... دعيني أعرف متى يمكننى أن أحضر إليكم بالضبط وأتصل بكم ثانية .. ها أنا قد حددت مع حسام موعداً وأعواد الاتصال بالعائلة فإذا نفس الإجابة في التليفون مرة واثنين وثلاثاً وأربعاً .. فلنصبر وسوف نتحدث .. حتى إذا كانت الساعة الحادية عشرة تحدثت ربة العائلة .. يا سيدتى تليفونك لا يزال معطلاً .. طلبتك أكثر من أربع مرات .. لا عليك مما مضى ولكن اطلبى مصلحة التليفونات .. طيب حاضر ! أرجوك ! حاول أن تطلبنى مرة ثانية ما إن ننتهى من مكالمتنا هذه .. لا أمل أيضاً .. في الثانية عشرة خطر في بالي أن أطلع اسم هذه العائلة في دفتر التليفونات الخاص بكليفلاند ووجدت أن هناك صفحة كاملة من الذين يحملون لقب هذه العائلة .. أما اسم هذه العائلة فهو موجود فعلاً وبذات العنوان ولكن رقم التليفون مختلف .. هنا سر المأساة إنه ليس مختلف تماماً كما يتوقع القارئ من اقتران كلمة تماماً بكلمة مختلف في حديث المصريين عما يتعجبون منه حين يقولون مختلف تماماً أو مختلف خالص خالص ..

إنما كان الاختلاف في رقم واحد .. يالله .. في ذات اللحظة كانت العائلة الأمريكية تتصل .. انتظرت فقد تعلن بنفسها عن اكتشاف الخطأ لأنها بالطبع لن تسكت في الساعة الماضية عن بحث هذه المشكلة .. ولعلها طلبت بل لقد طلبت مصلحة التليفونات بالفعل وأجروا لها اختباراً وكلموها من السنترال ولم يعد هناك من احتمال للبس إلا أن يكون الرقم المطلوب (أى الذى معى) خطأ .. وهكذا طلبوا أن أقرأ الرقم المرسل بالتكس .. وبدأنا مرحلة من التفهم الصحيح .. وحين راجعت الخطابات الأولى التى فيها عنوان العائلة اكتشفت أنها تضم الرقم الصحيح ، وصباح الإثنين حين كان على أن أبدأ عملى كنت أعود من حين لآخر إلى القول المنسوب فيما أظنه للإمام الشافعى عليه رحمة الله .

« إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده »

وحين جاءنى د. حسام الشرقاوى ود. عمر مسعود أثرت أن نبدأ بقراءة الخرائط وكانت مفاجأة .. لو اتبعنا الخرائط فسوف نمضى في الطريق قرابة أربعين ميلاً إلى طريق آخر يحمل نفس الاسم . ولكن بما أننا جميعاً متأكدون من أن منزل العائلة يقع في مرتفعات كليفلاند فلا بد من أن نبعد عن عنوان الخريطة .. وها نحن نعود للفندق فنسأل العائلة بالتليفون . وتبسط لنا العائلة وصف منزلها فعلى بركة الله .

كانت ربة العائلة تقف خلف زجاج منزلها وتشير بأصبعها تصيح لنا .. إن طريق الدخول إليها بالسيارة (Drive) إلى الشمال وليس إلى اليمين .. هكذا حتى تكون قبالة الباب بالضبط .. من حسن الحظ أن حسام وعمر يفهمان تماماً تقاليد الأسر الأمريكية ، وهكذا انتظرا في الخارج ولم يساعدانى في حمل

الحقائب ودخول المنزل بها .. ربة البيت تقودنى إلى حجرة نومي في الدور العلوى وتعطينى فكرة سريعة عن حجرة التليفزيون والاسترخاء الخاصة بى في البدروم وإلى جوارها حجرة المغسلة .. والمطبخ في الطابق الأرضى (الاول) ومع هذا أجدنى .. أسرع في الاستئذان حتى لا أؤخر حسام وعمر على وعد بالاجتماع معها عند عودتى في المساء أو في صباح اليوم التالى للاستماع إلى التعليمات الكاملة .

(٢)

وحين عدت في حوالى الثامنة مساء كان النور مضاءً في الطابق الاول .. ولكن العائلة غير موجودة .. لعلها تركت النور مضاءً ليؤنسنى حين أقدم . لابد أنهم نيام الآن في الطابق العلوى .. أخذت أتحمس خطواتى إلى الطابق العلوى وأنا حريص كل الحرص على ألا أتى بأية حركة .. إلى اليمين حجرة بابها مفتوح ثم حجرتى ثم الحمام وإلى اليسار باب مغلق ثم حجرة بابها مفتوح .. لابد أنهم نيام وراء هذا الباب المغلق . أغلقت باب حجرتى وأخذت أرتب متاعى ... ثم نزلت إلى الطابق الأرضى وأخذت أرتب الأطعمة التى اشتريتها من السوبر ماركت في ذلك الرف الذى أخبرتنى ربة العائلة في الصباح أنه مخصص لى في الثلاجة ، وفى ذلك الرف المناظر في دولاب الطعام وفى ذلك الجزء الأيسر من الفريزر . كان الفريزر ممثلثاً تماماً رغم سעתه .. ومع هذا وجدت مساحة كانت كافية بالكاد للكبد واللحوم والسّمك والدواجن التى أحضرتها اليوم .

انتويت الصيام لأول يوم في رمضان وللشهر كله وأويت إلى فراشى . وفى حوالى الثانية عشرة استيقظ جسدى لأنه تعود على ذلك بفعل الساعة

البيولوجية كما أخبرتك وليس هناك من أمل في أن يعدل عما اعتاد عليه بين يوم وليلة ، في الخامسة والنصف استيقظت لاداء صلاة الفجر وظللت في حجرتي حتى التاسعة ، في التاسعة تماماً كنت في الطابق الأرضي حيث وجدت ربة العائلة لاتزال في المطبخ تتناول قهوة الصباح ، وبدأنا الاجتماع ، هذه ورقة طويلة بالتعليمات وناقشناها معاً .. لن أذكر لك تفاصيل كثيرة .. ولكني سأذكر على بعض ما يهكم من أمر الحياة الأمريكية اليوم ، وقد تكون عندك فكرة أسبق مني ، ولكني سأحدثك بانطباعاتي حتى لو اتهمتنى بالتخلف .

يبدو أنه لم يعد لجهاز البوتوجاز مكان في المطبخ الأمريكي .. فالاعتماد اليوم على جهاز الميكروويف .. وعند هذه العائلة جهاز جديد .. ولكن كيف يمكن لي أن أعتد عليه في إعداد شرائح الكبدة المحمرة .. التي تحتاج زيتاً مقلياً؟ ربة البيت تتناول المرجع المناسب الموجود في مكتبة المطبخ .. وفي المرجع المذكور أننى فيما يختص بالكبد بحاجة إلى تشغيل الميكروويف لمدة دقيقة ثم إلى أن أترك الطعام في الميكروويف ١٥ دقيقة أخرى .. بيني وبينك لم اقتنع تماماً . ونسويت أن أجا إلى الوسيلة القديمة إلى موقد الغاز الكهربائي .. هل انتابتني الشيوخة أنا الذى لم يترك جديداً إلا جربه .. لا يا سيدى اليوم أول يوم في الصيام وليس عندي فرصة أخرى لطعام آخر .

ولكن الأمر حُسم بطريقة أخرى فحين أقبل المغرب كانت ربة البيت على رأس مائدة الطعام بالقرب من المطبخ ومعها ثلاث من صديقاتها وأصبح من الصعب على أن أقبّل أن أركم أنوف هؤلاء جميعاً ببخار الزيت المقلّى .. حتى مع وجود هذا الشفاط الذى اتفقت منذ الصباح على تشغيله بمجرد البدء في استعمال موقد الغاز .

لن أقول لك إن الكبدة بالميكروويف كانت أحلى كبدة في حياتي ولكنها

كانت بلاشك قريبة من هذا المعنى . إذا كان لك أن تسألنى عما فعلت في هذه الكبدية قبل أن تدخل إلى الميكروويف فإننى ألخص لك القول بأنها غمست تماماً في الفلفل .. وأحيطت بزيت المازولا الشهير .. وبدعاء الصائم المضطر المغترب !!

عودة إلى أول صباح لى في المنزل : في الضحى فقط وحين انتهت ربة البيت من اجتماعها تركتني لتعود بعد حوالى نصف ساعة في ملابس الخروج .. ساعتها فقط أدركت أن حجرة نومها هنا في الطابق الأول .. أما ذلك الباب المغلق فلم يكن وراءه [طبقاً لما فهمت بعد ذلك من ورقة التعليمات] إلا المكنسة الكهربائية .. وأدوات التنظيف .

للعائلة ابن هو ريتشارد وابنة هى كريستين . الولد هو الأصغر ويعمل معملياً في إحدى مستشفيات سلاح الجو الأمريكى . والإبنة كريستين ٢٦ عاماً متزوجة وتعيش في كولومبوس أما ربة البيت نفسها فإخصائية اجتماعية . تعمل في إحدى جمعيات مرضى السرطان في الجانب الغربى من المدينة .

(٣)

دعنى أحدثك بعد ذلك عن روتين الحياة اليومى في بيت العائلة الأمريكية . بالنسبة لى كانت هذه السكنى النموذج الأمثل لما أريد ، لن يضيع وقتى في حكايات عن الوطن البعيد مع زميل مصرى — سأعيش الثقافة الأمريكية بمعنى الثقافة الواسع كأسلوب حياة وهو ما لا يتاح للمرء إلا إذا عاش معهم في بيوتهم وخارج بيوتهم لا في مجرد العمل وساعاته فحسب — بالإضافة إلى هذا هناك فاصل واضح بين حجرة النوم وبين حجرات الطعام والمطبخ

والمعيشة - على حين أن شقق الحجرة الواحدة (الاستوديو) تكس كل هذا وتكرسه في مساحة محدودة قد تكون واسعة ولكنها موحدة على كل حال .

في حجرتي كرسي مريح ومكتب أكثر راحة ، ودولاب حائط ، ودولاب آخر، ومنضدة إلى جانب السرير ومكتبة في الحائط - كل ما ابتغيه تقريباً . كل صباح هناك جريدة وقد تعودت أن أقرأ صحيفة الصباح حتى في البلاد التي لا أعرف لغتها جيداً ، واعتقد أن مجرد تصفح صحف الصباح لا يحتاج معرفة اللغة . هناك مطبخ حقيقي وليس مطبخاً يتكون على عجل وفي حالة طوارئ .. صحيح أنني لست مداوماً على الطبخ المستفيض إنما هي وجبات عاجلة تعودت عليها منذ بدأت اغترابي منذ أكثر من ١٧ عاماً ولكن لا بد من مطبخ من أجل إذا قدر .. أو كما يقول الأمريكيان In Case ، يقصدون من باب الاحتياط . هناك أدوات للنظافة على حين أنك في الشقة الصغيرة ستجد نفسك مضطراً لتنفيذ كل عمليات النظافة بأداة واحدة .. أي أداة تقع في يدك قبل غيرها - فلا مانع من أن تكنس بالمساحة أو تمسح بالمقشة .. إلخ). هناك الشعور بالوجود في بيت وبالاتناء إلى أسرة .. هناك من تفكر في أنه سيسالك إذا تأخرت في المساء عن عودتك - هذا الشعور يريح الذين نشأوا على نشأة تجمع بين الفطرة السليمة والحرية الحقيقية . هناك الشعور بالاتناء إلى مجتمع بكل ما يحمله موقع البيت والمنطقة السكنية التي هو فيها من معان .. هناك بعد ذلك كل الخبرة بتأثيث البيوت وترتيبها والإفادة من أركانها وتوظيف المبانى للمعاني والمساحات للأغراض ولمسات الفن الجميل سواء في التشكيل أو التكوين أو الزخرفة أو الزهور أو الأثاث أو الألوان أو الترتيب .. في السابعة وعشر دقائق تفتح ربة البيت باب جراج السيارة بالريموت كنترول بينما هي لاتزال في المنزل ثم تنزل إلى سيارتها فتبدأ في إدارة محركها وتركها وتعود لتستأنف ترتيب ما تأخذ من متاع معها وقبل السابعة والربع تتحرك

بالسيارة إلى الخلف ريثما أغلق أبواب المنزل بمفاتيحي وأستقل السيارة في الكرسي الامامى بينما الصديق والزميل البولندى الذى يسكن عند العائلة المجاورة قد سبقنى إلى الكرسي الخلفى أو يلحقنى فيه .

في السابعة و٢٢ دقيقة أكون في المستشفى وتستأنف ربة البيت طريقها إلى عملها — حوالى ٤٥ دقيقة . وتبقى هناك حتى الخامسة مثلاً ، وتخرج في طريق عودتها على من تريد من أصدقاء أو مصالح . أما عطلة نهاية الأسبوع عندها فهي كذلك حافلة بالعمل والنشاط . في نهاية أسبوعى الاول كانت على موعد مع والدتها .. على بعد ١٥٠ ميل من كليفلاند .. ولهذا سافرت منذ الخميس ، غابت الجمعة والسبت — وجاءت في مساء الأحد .. كان هذا الأسبوع يناظر عندنا عيد الأم في مصر ولكنه لم يكن كذلك في أمريكا ومع ذلك كانت هذه السيدة عند والدتها محملة بكثير من الهدايا !! في نهاية أسبوعى الثانى كان عيد الفصح يوم الأحد .. وكان عيد ميلاد أقرب صديقاتها إلى قلبها يوم السبت . في نهاية الأسبوع الثالث كان عليها أن تسافر إلى بيتها الريفى حيث دعت أخيها وخطيبته لقضاء عطلة نهاية الأسبوع هناك حين قابلتهم عند والدتها قبلها بأسبوعين .. سافرت ربة البيت صباح الجمعة ولكنها كانت منذ ظهر الخميس مشغولة باستقبال ثلاثة ضيوف هم ابنتها وزوج ابنتها ووالده الذين خرجوا في سيارتين من كولومبوس في وداع الأب المسافر إلى كندا عبر كليفلاند .

وليس هذا هو كل السفر في حياة ربة البيت التى قاربت الستين . ففى أحد أيام الخميس كانت مسافرة إلى توليدو ، لتحضر ندوة موضوعها « النكتة كجزء من العلاج » ، لك أن تعجب من أن تسافر هذه السيدة كل هذه المسافة لتحضر مثل هذه الندوة حتى ان احترمت موضوعها باعتباره موضوعاً هاماً حتى وإن بدا من اسمه أنه موضوع كاريكاتير عن ندوة لا موضوع ندوة .

ولكن عجبك يزول إذا علمت أنه لا بد لهذه السيدة شأنها شأن كل الأمريكيين الذين يمارسون مهناً من أن تنتظم في برامج ما يسمى [التعليم المستمر] حتى تكون قادرة على أن تستمر في أداء مهنتها والبقاء في وظيفتها .

وعلى كل الذين يمارسون المهن المختلفة في الولايات المتحدة أن يبحثوا بأنفسهم عن الندوات وأن يحضروها وأن يسجلوا حضورهم بشهادات تتضمن هذه الشهادات قيمة هذه الندوة من حيث الساعات المعتمدة حسبما تقدر الهيئة المشرفة على ممارسة المهنة . فإذا كانت هذه السيدة مثلاً مطالبة بخمسين ساعة في العام من التعليم المستمر فإنها لا بد أن تحضر عشر ندوات من مثل هذه الندوات التي قدرت لها نقابة الاجتماعيين [مثلاً] أو اللجنة الدائمة للوظائف الخاصة بالخدمة الاجتماعية [مثلاً] أو جمعية الاجتماعيين [مثلاً] خمس ساعات في مقياس ساعات التعليم المستمر حتى وإن كانت الندوة تستمر لمدة ١٢ ساعة ما بين مناقشات ومحاضرات واجتماعات ... إلخ. هذا هو تعليم الكبار أو التعليم المستمر .. وفيما مضى ومنذ حوالي ١٢ عاماً بدأنا في مصر برنامجاً للتعليم الطبى المستمر ثم أجهضناه شأن كل أجنقتنا التي نجهضها دون أن نستشعر حرمة قتل ما من شأنه أن يكون زادنا وثروتنا في تطلعاتنا نحو المستقبل .

(٤)

جانب آخر من حياة ربة البيت الأمريكية أريد أن أحدثك عنه بشيء من التفصيل وهو اهتمامها بالثقافة والكتب ، ففي الحجرة الرئيسية مكتبة صغيرة ، وفي دولا ب حجرى مكتبة أصغر ، وفي الحجرة المجاورة مكتبة أصغر وأصغر ، وفي الطرقة التى أمامها مكتبة صغيرة أيضاً ، وفي الحجرة الرابعة مكتبة أكبر من الصغيرة . وفي المطبخ مكتبة مطبخ صغيرة ، وفي حجرة

الاستقبال شبه مكتبة أيضاً ، أكون مبالغاً إذا أهملت الجانب الآخر من الموضوع ولم أحدثك عن أن المكتبة من هاتيك الصغيرات لا تضم أكثر من عشرين كتاباً ، وأن مكتبات الدور العلوى كلها فيما يبدو حصيلة الاهتمام المفرط للابن بالسيارات - فعنده موسوعة السيارات عاماً بعد عام - وكتاب عن سيارات العالم ، وآخر عن سيارات أمريكا وأعداد من مجلة Hot rod وهى مجلة للدعاية للسيارات تضم أو تتعاقد مع ست من الحسناوات ، والمجلة تصور كل سيارة وعليها أو فيها أو على طرفها أو بجوارها فتاة عارية إلا قليلاً .. هل يا ترى يعجب القارئ بالسيارة من أجل السيارة أم من أجل الفتاة التى معها ؟ لست أدري .

أما مجموعة كتب المطبخ التى عند ربة البيت الأمريكى فشببيه بمجموعة كتب الطب عند الأطباء المصريين الشباب ، تجدهم رغم كثرتها يحتفظون بورق صغير يصورونه من هنا وهناك ويعتمدون عليه فى بعض عملهم . هذا هو ما حدث حين جاءت ربة البيت باعتزاز شديد بثلاث ورقات مصورة من مرجع ليس عندها منه نسخة وشرعت فى عمل (كيك القهوة)!!، أما كتب ربة البيت نفسها تلك التى تستحضرها من حجرة نومها فتحدثك عن ثقافتها الحقيقية - فعند ربة البيت أكثر من موسوعة تلجأ إليها فى الحصول على المعلومة التى نختلف حولها ، أو تحتاج إليها . وعندها مجلدات قيمة لأعمال أدبية من التراث العالمى ، ربما تحتفظ بها كما تحتفظ أمريكا ببعض هذه الأشياء فى متاحفها القومية !. وعندها المجموعة الكاملة للمجلة العلمية للإخصائيين الاجتماعيين . وعندها أيضاً مجموعة متفرقة من الكتب فى الفن والتاريخ والآثار وعندها كتابان فى الموسيقى .

أنا لست مبهوراً بمكتبة ربة البيت الأمريكية - ولست فى نفس الوقت مستخفاً بها إذا قارنتها بأى من مكتباتى ولكنى أريد أن أحدثك عن أن الأمور

لا تقدر إلا في إطارها الصحيح . فإن الأمريكيات المتعلّقات التي في سن هذه السيدة قليلات إذا ما قورن بالأوروبيات من جيلهن أو حتى بالأمريكيات من الجيل الذي بعدهن. ولابد أن تعرف أن في أمريكا أمية ولابد أن أحدثك أن علاج الأمية في أمريكا هو رابع المستحيالات لا أحدثك بذلك رثاء للأمريكيين ، ولكن لأذكرك أننا في مصر والبلاد العربية على وشك الدخول في ذات المرحلة من استعصاء الأمية على الحل .. تسألني لماذا ؟.

أظنك لست بحاجة إلى السؤال فهذا التلفزيون بقنواته الأربعين والفيديو من خلفه - ثم هذا التلفيون ومن خلفه دائرة المعارف التلفونية المجانية كفيلان بأن يتيحاً للامى كل ما كان يستشعره من نقص يدفعه إلى تعلم القراءة والكتابة، ليقرأ كتاباً أو صحيفة مثلاً أو فاتورة أو إيصالاً أو عقداً ، أو ليكتب خطاباً إلى ابنه المقيم على بعد ، أو طلباً للحكومة المحلية !! ها هو التلفيون وها هو التلفزيون يشبعان في البشر الحاجة إلى المعرفة من دون أن يمتلك المرء القراءة التي كانت أداة البحث عن المعرفة .. أعرف أنني أسطح الأمور وأننى اتجاوز حدودى حين اتناول المعرفة مثل هذا التناول السطحى، وحين اختزل الحاجة إلى المعرفة إلى هذه الأمثلة البسيطة .. ولكن الحقيقة التي لا شك أنها تصدمنا جميعاً هي أن هذه المعرفة التي تراها أنت وأراها أنا سطحية هي كل ما يهم الأمى وأكثر مما يهم الأمى. وإذا شبع الأمى بهذا وتوقف عند هذا فلن يشكوك ظمأ ولا جوعاً .

أليس في وسع الأمريكى الأمى أن يتحصل اليوم من بين أفلام القنوات المتعاقبة في التلفزيون الأمريكى على مشاهدة خمسة أو ستة أفلام كاملة .. هل كان في وسع المثقف في القرن التاسع عشر أن يقرأ روايات هذه الأفلام جميعاً في شهر واحد!! أليست ساعات معدودة أمام التلفزيون كفيلة بأن يطالع الأمريكى ما يناظر ست صحف أمريكية يومية مختلفة الألوان والأقلام والاتجاهات ؟.

نعم ياسيدى تبقى أنتى وأبقى أنا ويبقى كثيرون معنا لا يستغنون عن قراءة الصحف ولا عن مطالعة الروايات ولكنى أحدثك عن السواد الأعظم فى عصر أصبحت الثقافة فيه متأثرة إلى حد بعيد بفلسفة الـ Mass ولكن إذا لم تكن تأملت المعنى الحرفى فى اللغة الانجليزية فاعلم أنها لا تعنى إلا وسيلة الاتصال بالسواد الأعظم أو بالكتلة الكبيرة.

(٥)

هل أحدثك بعد هذا كله عن المنزل الأمريكى من مطبخه ربما كان من حقه علىّ ومن حق المنزل الأمريكى علىّ كذلك أن أتحدث عنه بشيء من التفصيل هو الآخر . فهذا هو مطبخ العائلة لا يكاد يتسع للدواليب التى فيه، ودواليبها لا تكاد تتسع للآرفف، والآرفف لا تكاد تتسع لما عليها.. من كل حجم الأطباق أكثر من ٥٠ ... وهناك أكثر من ٥٠ ملعقة وأكثر من ٥٠ شوكة وأكثر من ٥٠ سكينه ... عن المآلى حدث ولا حرج ... أدوات الميكروويف ، أوانى لفرن البوتاجاز .. أوانى للموائد الفخمة .. أوانى للموائد المتواضعة .. علب من جميع المقاسات للثلاجة وللميكروويف .. علب أخرى للبهارات .. علب لوازم الأيس كريم .. علب لوازم الكيك .. علب لوازم المائدة والسرفيس .. أدوات كبيرة وصغيرة .. أدوات للخلاطات .. والمكينات المختلفة .. أوراق مفضضة لحفظ الأطعمة المطهية وأخرى سلوفانية وأخرى ورقية . مساحيق الغسيل تفوق العشرة .. أطقم التوزيع لا حصر لها .. الفناجين يتعدى عددها يتعدى المائة وكذلك الكؤوس ولكل استعماله، هذا للمشروبات .. هذا للشاي .. هذا للقهوة .. إلخ. القهوة نفسها أنواع .. المحمصه أنواع كثيرة، بعضها يحفظ فى علب بلاستيكية، وبعضها فى أكياس ورقية، وبعضها فى علب معدنية ، وبعضها جاهز مباشرة لماكينه القهوة... أوان متنوعة للعصائر المختلفة، وأقول لربة البيت إن عندها أشياء كثيرة جداً جداً لأشياء كثيرة جداً جداً .. فتسعد بهذا

التعليق ولكنها تردف بالقول بأنها مسألة عمر فمع مرور الزمن يضيف الانسان إلى ما عنده .

كان على في هذا المنزل أن استوعب تشغيل أكثر من عشر آلات :

١ - الغسالة الكهربائية ونظامها مختلف تماماً عن غسالتى وكلما أحكى عن وجوه الاختلاف تعجب ربة البيت لهذا التقدم الاليكترونى الذى أصاب الغسالات!!

٢ - المجفف وربما كان أمره أسهل الأمور لأنك تضبط ساعته وتنظر في النهاية هل جففت أم لا ؟والحقيقة أنه لايجف فحسب وإنما يحمص الملابس.

٣ - البوتاجاز الكهربى وربّة البيت حريصة أن تجعلنى استعمل الشعلة المناسبة لما أعمل بينما أنا كمادتى استسهل الشعلة الأمامية اليسرى لأنها في متناول يدي عن يميني، وتعطى ما أريد، ويمكننى التحكم فيها بالقليل، ولكن ربّة البيت لا توافق على هذا المبدأ لأن نتيجته ستكون ضارة بحواف الأوانى الصغيرة التى توضع على هذه الشعلة فيصيبها اللهب من أطرافها أو بسطح البوتاجاز من حول الشعلة حين يصيب رذاذ الوقود واجهة البوتاجاز التى عليها عدادات الحرارة!!

٤ - الميكروويف . وقد سبق لى أن صارحتك باعتقادى أنه لن يصبح هناك محل للبوتاجاز إذا تطور هذا الميكرويف في السنوات القليلة القادمة على أيدي اليابانيين وبأموال الزبائن العرب.

٥ - التليفزيون وهو أسوأ الأجهزة لأنك لا بد أن تكبت عليه بنفسك (بلمس الأزرار طبعاً) القناة التى تريدها قبل أن يبتها لك .. ما أحلى الريموت الذى نشره اليابانيون في بلادنا .

٦ - الفيديو .. حيث شاهدت بعض برامج جمعية القلب الأمريكية .

٧ - المكواة الكهربائية سبحانه الله كنت أظن الماركات التي نعرفها أرقى الأنواع فكيف نصف هذه التي لا يزيد وزنها عن الخمسين جراماً التي تسوى الصوف بمجرد لمسة .

٨ - ماكينة صناعة القهوة .. وأمرها سهل .. فهي تقريباً نفس الماكينة التي نعرفها جميعاً .

٩ - المكينة الكهربائية وهذه في حد ذاتها تحتاج خبرة طويلة لأنها متعددة الأغراض والاتجاهات والاستعمالات .

١٠ - التكييف المركزي وأمره سهل .

١١ - غسالة الأطباق وأمرها سهل أيضاً لأن كل إناء يوضع في محله ثم تدور .

١٢ - الراديو بالساعة والمنبه وسوف أستعمل الراديو فقط . فإذا أضفت إلى كل هذه الأجهزة خبرة لا بد لك بها مع كل مفاتيح الإضاءة . ومفاتيح التحكم في مفاتيح الإضاءة .. ما هذا؟ وهذا يضيء ماذا؟ .. أدركت أن المسألة ليست بالبساطة التي تظنها من التأقلم على بيت جديد .

قبل أن تسافر العاطلة في أول مرة أوصتني ربة البيت خيراً بقطعتها الأثيرة " باتشي " ولماذا لا تأخذوها معك ياسيديتي ؟ . الجواب : حتى لا تتعب أعصابها بأماكن لم تتعود عليها ، أو بالركوب في سيارة قد تهتز فتقلق باتشي النائمة دائماً.. من هذا الدولاب تستطيع أن تأتي بالطعام إذا نقص طعامها.. وفي هذا الاناء تضع لها الماء .

والمسئولية عن حيوان أعجم أمانة ثقيلة وكل فترة لا بد أن أذهب لأطمئن إلى أن باتشي لا تزال بخير ولكني أساءل نفسي ماذا تفعل هذه القطعة النائمة؟ لست أدري . هل تأكل الفئران؟ أعتقد أن أي فأر مهما كان ضئيلاً قادر على أن يأكل هذه القطعة وأن ينتهي من مضغ لحمها كله في خلال أسبوع واحد . وحتى

هذا الفأر المصنوع من الموكيت و البلاستيك والملقى أمام باتشى على الأرض كفيل بها ، هكذا انتابنى الإحساس تجاه هذه القطعة، وقديما كنا نعرف خيال المآته على أنه يخيف الطيور .. الآن يبدو أن هناك خيال مآته من نوع آخر كهذا الفأر الخيالى الذى يعطى الثقة للقطعة بأنه لازالت هناك فئران فى الحياة الدنيا. بعد أيام من إقامتى اكتشفت شيئاً خطيراً حمدت الله عليه .. كانوا يسألوننا فى مراسلتهم أن نحدد إذا كنا مدخنين أم لا. لأن العائلات التى سنقضى عندها وقتاً ترغب فى تحديد هذه النقطة منعاً لإزعاج أى من الطرفين . جارتنا (ف) التى يقيم عند عائلتها زميل البولندى مدخنة .. لكن المأساة التى رحمنا منها الله أن عندها ٣ كلاب !! ياللهول أما كان أولى بهم أن يسألوننا هل أنتم تطيقون الكلاب أم لا ؟ فكرت فى نفسى (لو قدر لى بعد هذا أن أكرر مثل هذه التجربة) أن أكتب فى ورقى أننى غير مدخن وغير مطبق للتدخين ولا للكلاب وحمدت الله على نعمة الستر. فى صباح اليوم التالى وفى صدفة غريبة كانت ربة البيت تسألنى بينما نحن فى السيارة.. هل يربون الكلاب عندكم فى البيوت .. نعم ياسيدتى بعض الناس ولكنى لا أحب.. وتستطرد ربة البيت إنما أردت أن أسأل لأنه حدث ذات مرة أن جاءت طبيبة من الأردن كان المفروض أن تقيم عند جيراننا فلما وجدت الكلاب اعتذرت عن الإقامة فى مثل هذا البيت.

فيما بينى وبين نفسى أقول ولو كنت مكانها لفعلت هذا أيضا بالطبع.. وفيما بينى وبين مضيفتى لا بد من حديث آخر .. حديث عن الإنسان وكيف يخاف من الحيوان الأليف .. وأنا أعرف أن حديثى الجميل يعبر عن خوف صغير جميل أيضا.

الفصل الخامس كليفيلا ند كلينك: المكان والمكان

أحب أن أحدثك الآن ولبعض الوقت عن العمل في مستشفى كليفيلان د كلينك الذى قضيت فيه شهرين زائراً لأقسام القلب والأوعية الدموية، والذى يعد من أحسن المستشفيات في الولايات المتحدة . إذن فمن المنطقى أن أحدثك عن أحسن المستشفيات في الولايات المتحدة وأنت تدرك للوهلة الأولى أن هذا حديث صعب، لأنه يصعب عليك أن تميز بين القمم، ومع هذا لابد من التمييز، دعنى أذكرك بالمائة الأوائل في الثانوية العامة - هل هناك فرق كبير بين الطالب الأول والطالب المائة؟ ربما ثمانية درجات أو ٢٪ في المتوسط ولكن لابد أن يكون هناك أول المائة، ولهذا فإنك أحياناً ما تجد الأول فالثانى فالسابع لأن هناك خمسة يحتلون المركز الثانى.. كل منهم الثانى مكرراً.. ولهذا يحتلون مراكز الثالث والرابع والخامس والسادس إضافة إلى المركز الثانى نفسه .

إذن هذا الترتيب هو بمثابة البحث عن أحسن الحلوين .. وإذا كنا في حياتنا كثيراً ما نقنع بأحد البدائل لا لشيء إلا لأنه أحسن الوحشين.. فإن أحسن الحلوين يصبح بالنسبة لنا مشكلة كبرى. هناك بالطبع معايير كثيرة

لتقييم المستشفيات، ولن تنتهى، هذه المعايير وبالطبع هناك جداول ومقاييس ومعايير موحدة و Scores لهذا في كتب إدارة المستشفيات وتقييمها، ولكنى مع هذا سأحاول أن أخص لك تقريراً عن أحسن مستشفيات أمريكا لصحيفة أنباء الولايات المتحدة (U.S. News & World Report) العالمى وهى الجريدة التى لا تكاد توازيها عندى إلا الهيرالد تريبيون.

كانت فكرة الصحيفة في إعداد هذا التقرير أنها سألت ٤٠٠ طبيباً في ١٢ تخصصاً وكانت إجابات الأطباء منصبة على ٥٧ مستشفى، وقد اختارت أكثر هذه المستشفيات تردداً في اختيارات الأطباء ورتبتها على النحو (الرقم السابق هو الترتيب للمستشفى يدل على عدد التخصصات التى حظيت بتقدير الاختصاصيين).

- □ مستشفى مايو كلينك في منيسوتا ١١ تخصصاً.
- □ مستشفى جون هوبكنز في بالتيمور ١٠ تخصصات.
- □ مستشفى جامعة دوك - ولاية كارولينا الشمالية ٩ تخصصات.
- □ مستشفى مساشوستس - بوسطن ٨ تخصصات.
- □ المركز الطبى لجامعة كاليفورنيا لوس أنجلس ٨ تخصصات.
- □ المركز الطبى لجامعة واشنطن في ولاية سياتل ٧ تخصصات.
- □ مستشفى بارنيس - سان لويس ٤ تخصصات.
- □ مستشفى كليفلاند كلينك ٤ تخصصات.
- □ المركز الطبى المشيخى كولومبيا - نيويورك ٤ تخصصات.
- □ مستشفى جامعة ستانفورد، كاليفورنيا ٤ تخصصات.
- □ المركز الطبى لجامعة كاليفورنيا سان فرانسيسكو ٤ تخصصات.

طبعاً من الملاحظ أنهم سألوا ١٢ تخصصاً فقط، ولو سألوا تخصصات أكثر فربما تغيرت النتيجة- ولكن هذه الفكرة سريعة وصادقة إلى حد بعيد على كل حال.

هل تحبني أن أزيدك في هذا المجال بعض الشيء فأنقل لك قائمة أحسن الحلوين في تخصص القلب إذن فهذا هو الترتيب :-

- مايو كلينك ٧١٪ من الأصوات .
- مستشفى مساشوستس ٧١٪ من الأصوات .
- كليفلاند كلينك ٥١٪ من الأصوات .
- مستشفى جامعة دوك ٤٩٪ من الأصوات .
- مستشفى برجهام وومن ٤٦٪ من الأصوات .
- مستشفى جين هوبكنز ٣٧٪ من الأصوات .
- مستشفى جامعة ستانفورد ٣٧٪ من الأصوات .
- مستشفى جامعة إيمورى ٣٧٪ من الأصوات .
- مستشفى جامعة ألاباما ٣١٪ من الأصوات .
- المركز الطبى المشيخى - كولومبيا بنيويورك ٢٦٪ من الأصوات .
- المركز الطبى لجامعة بنسلفانيا ٢٣٪ من الأصوات .

ها أنت ياسيدى قد أخذت فكرة عن المستشفيات - ولعلك ونحن بلد يفرق بين القطاع العام والقطاع الخاص وبين الجامعة ووزارة الصحة .. إلخ تدرك معنى من الأسماء التى كتبتها كاملة أن كلا من مايو كلينك وكليفلاند مؤسسات خاصة وليست بمستشفيات جامعية ولا حكومية وأن القائمة تضم مستشفيات جامعة ومستشفيات عامة كذلك .

وقد ساعد على ذىوع كليفلاند كلينك والشهرة العالمية التى حظى بها أنه شارك فى صياغة كثير من الإنجازات الرائعة التى شهدتها السنوات الأخيرة

فقد شارك في تطوير جراحات القلب والتصوير الصبغى لشرابين القلب، كما شارك في تطوير جراحات سرطان الثدي والدرقية والقولون والأمعاء وكذلك في زراعة الكلى والكلى الصناعية. وبالإضافة إلى هذا ساهم هذا المستشفى في تحديث وتطوير الأعضاء الصناعية وبخاصة الوسائل المعينة للقلب (I.C.U) وفى زراعة القلب .

أما البحوث التى أجريت على الضغط وعلاقته بتصلب الشرايين فهى نموذج رائع للبحوث العلمية الدموية والمتكاملة والتى درست كثيراً جداً من العوامل والجوانب المتعلقة بالموضوع.. ويكفيك أن تطالع مثلاً قائمة عناوين البحوث التى نشرها اثنان من أساتذتنا المصريين الذين عملا فى هذا المستشفى منذ السبعينات وهما الدكتور روبر طرزى والدكتورة فتنة فؤاد لترى كيف عُنِى قسم البحوث فى هذا الصرح الطبى العظيم عناية خاصة بهذا المرض. وفى الطريق إلى المراجع الطبية وإلى استخداماتنا فى كثير من المستشفيات فى جميع أنحاء العالم نتائج التطبيق لأجهزة دراسات التصوير الصبغى للشرابين بالطرح الرقمى (Digital subtraction Angiography وأجهزة الرنين المغناطيسى / magnetic Resonance (MR) التى أصبح لأقسام الأشعة هنا خبرة واسعة بها منذ أتيح لأطباء هذا القسم العمل على الطرازات الأولى من هذه الأجهزة وتسخيرها لخدمة أغراض العلاج والتشخيص.

لا غرابة إذن فى أن يستقبل هذا المستشفى كل عام ٦٣٠ ألف حالة فى العيادات الخارجية وأن يدخل هذا المستشفى للعلاج الداخلى ٣١ ألفاً كل عام. ولا غرابة فى أن تتسع مظلة جنسيات هؤلاء المرضى لتغطى ٧٨ دولة خارج الولايات المتحدة . ومن الطبيعى إذن أن ينتبه الأمريكيون إلى إنشاء ما يسمى بالمركز الدولى فى هذا المستشفى لينظم ويساعد فى تنمية علاقات المرضى الأجانب بهذا المستشفى، ويضم هذا المركز مجموعة من المترجمين، يساعدهم

وقتهم على أن يرافقوا المرضى من قسم إلى قسم، ويتابعوا لهم مواعيد الفحوص والعمليات... إلخ، ولهذا كانت كليفلاند كلينك أول مؤسسة حظيت بأن أطلق عليها الكونجرس ووزارة الصحة والخدمات الإنسانية الأمريكية مصطلح "مركز قومي للاستشارات" .. وهى جملة تعنى ما تعنى ولكنها ترتفع بالمركز من هاتيك المراكز إلى المكانة التى تحتلها فى القضاء محاكم النقض والإبرام .. أو المحاكم العليا كما يسمونها فى بعض البلاد. أحب أن أنتهز الفرصة هنا لأذكر أن الدكتور محمد كامل حسين عليه رحمة الله حين كان يتحدث عن القصر العيني (الجديد أيامها) منذ ستين عاماً يقول إن الهدف من تطوير القصر وتطوير التعليم والعلاج فيه أن يكون بمثابة محكمة عليا للحالات الصعبة. المعنى واضح وإذا كان التشبيه بالقضاء لا يروق لك، فخذ مثلاً على ما أريد أن أقول بما يسمى فى فقه طائفة الشيعة بالمرجعية.

تسألنى عن عدد الأطباء العاملين فى هذا المستشفى فأجيبك بأنهم لا يبلغون الخمسمائة فهم حوالى ٤٥٠ ولك أن تعجب من قلة عددهم بالمقارنة بعدد أطبائنا فى الجامعات أو وزارة الصحة.. ولكنى أعتقد أنك تقدر أن هؤلاء متفرغون تماماً للكليتك، غير مسموح لهم بأى عمل خارج الكليتك حتى الأطباء العاملون فى أقسام البحوث والتعليم. وأريد أن أكون صادقاً معك حتى النهاية فأستثنى لك النواب الخمسمائة الذين يساعدون هؤلاء الأطباء فهؤلاء النواب هم الوحيدون الذين يستطيعون أن يختطفوا من أوقاتهم المسائية يوماً أو اثنين فى الأسبوع يكونون خالين فيه من النوبتجيات ليعملوا فى النوبتجيات المسائية الساهرة فى المستشفيات الخاصة الصغيرة .. يسمون هذه النوبتجيات هنا بالعمل فى ضوء القمر Moon Light تعبير جميل بلاشك.. ولكن الأجمل منه أنهم يتقاضون عن الساعة الواحدة حوالى ٣٥-٤٠ دولاراً

ومع ذلك لا يعجبهم الحال .. مع أن هذه الساعة تفوق مرتب زميلهم المصرى
في شهر كامل!!!!

ونعود إلى عدد الأطباء القليل فنجد أنه مسنود بعدد ضخم من الموظفين -
يكفى لكى تأخذ فكرة عن الموظفين قبل أن أعطيك عددهم الكلى، أن أذكر لك أن
لكل طبيب من أطباء القلب ممرضة خاصة وسكرتيرة خاصة - تصور ٤٥
ممرضة و ٤٥ سكرتيرة لأطباء القلب. دلك من ممرضات الرعاية والقسطرة
والموجات فوق الصوتية والأجنحة العادية، وسكرتيرات الاستقبال والمواعيد
وتوزيع الحالات على الأطباء والعاملات على الكمبيوتر.. إلخ كل هؤلاء .. إلا
يستلزم هنا أن يكون عدد العاملين في المستشفى تسعة آلاف موظفاً وموظفة
(بمتوسط ٢٠ لكل طبيب) . و تتيح المستشفى لنفسها الفرصة الكبرى من
كفاءات النواب حين تتيح الفرصة لتدريب ٥٠٣ نائباً و ١٣٤ زميل أبحاث
و ٢٣٩ من طلاب العلوم الصحية المتصلة بالطب و ٤٢٦ طالباً (يقضون شهراً
أو شهرين) ، ست وستون منهم طلاب الصف الثالث وثلاثمائة وستون من
طلاب الصف الرابع من مدارس الطب .

هل تريد أن تكون فكرة عن أسعار العلاج في هذا المستشفى - نعم لك أن
تكون فكرة عن أن سرير الرعاية المركزة يتكلف في الليلة ألفاً وخمسمائة دولاراً
تقريباً، أما السرير في الحجرة العادية فيتكلف من ٥٧٥ إلى ٧٧٥ دولاراً في
الليلة الواحدة. أما القسطرة فتكلف المريض ثلاثة آلاف ونصف . وأما فحص
الموجات فوق الصوتية فيكلف المريض ألفاً من الدولارات.

كيف يختار هؤلاء المتميزون متميزين جدد للعمل معهم؟ في أثناء إقامتى
كانت كليفلاند كليتك بصدد إختيار رئيس جديد لقسم القلب، فقد بلغ
الاستاذ شيلدون الستين وقد تولى رئاسة القسم منذ الستينات ، وكان هناك

اثنان يمثلان أبرز المرشحين ولم يبلغا الأربعين بعد : أستاذ مساعد من ميتشجن وأستاذ من جامعة دك .. أما مرشح مايو كلينك فلم يلق القبول من اللجنة .. واللجنة مكونة من سبعة من كبار أطباء المستشفى من أقسام أخرى غير القلب.. واختيار رئيس قسم جديد ليس بالمهمة السهلة على الإطلاق، ففضلاً عن الحرص على اختيار الأفضل والأنسب تأتي مراعاة رغبات وفلسفات المرشحين فقد يطلب الرجل مثلاً خمسين مليوناً للأبحاث كل عام .. قد يرى أنه لا ينبغي لراتبه السنوي أن يقل عن رقم معين!! قد يرى زيادة عدد معامل القسطرة إلى النصف.. قد يرى مضاعفة أسرة الرعاية المركزة أو تعديلاً جذرياً في خطط العلاج فيها.. إلخ . ومثل هذه السياسات ترتبط تماماً بالسياسات العامة الكبرى للمستشفى وموازنته .

عملية اختيار رئاسة القسم أصعب بكثير من أن تُشبه بالخاض فحسب . يكفي أن نذكر أن الطبيب العالمى الدكتور سون بكل عظمته لم يستمر في موقعه وعمل تحت رئاسة شيلدون. وقد توفى سون منذ سنوات قليلة وسميت معامل القسطرة باسمه، وما زال كل من في القسم يذكره ويذكرون فضله .. وقد التقيت برجل عظيم هو الأستاذ إيرل شيري Earl Shirey كان أول من عمل مع سون في القسطرة ولكنه يحمل لقب Resident Emeritus وله مكتب وأبحاث.

ربما يكون السبب في شهرة كليفلاند في مصر اهتمامها بجراحات القلب المفتوح وعلى الرغم من أننا حققنا كثيراً من النجاح في كليات الطب وفي معهد القلب القومى في إمبابية إلا أننا لا نزال نفضل أن نعالج أنفسنا خارج مصر غالباً في كليفلاند أو هيوستون تكساس في الولايات المتحدة - وأحياناً أخرى في لندن ، ومن حق القارئ أن أتجرد الآن من مهنتى كطبيب قلب

لاعترف له أنه سيأتى يوم قريب وقريب جداً يصبح فيه الذين يجرون جراحاتهم في مصر فخورين بأنهم أجروها في مصر ولم يضطروا إلى اللجوء إلى الخارج، ذلك أن مراكزنا اليوم تتقدم بسرعة رهيبية في هدوء، وتتغلب بعزيمة قوية ونية صادقة على ما يصادفها من متاعب، والأهم من ذلك أن خبرة هذه المراكز في مواجهه المصاعب تنمو في بناء متكامل ... إلى حين تصل المهن الطبية المساعدة والموازنة في مصر إلى النقطة المثالية للإتزان مع الخبرات الطبية والإمكانات العملية وأدعو الله أن يتاح لنا لى ولجئلى أن نشهد هذا اليوم عن قريب .

تجرى كليفيلاند في العام ثلاثين ألف عملية جراحية منها ٣٢٠٠ عملية جراحة قلب، هذا الرقم يعطيك فكرة عن كليفيلاند وكيف أصبحت أكبر مراكز لجراحات القلب في العالم. وقد تولى الجراح الأشهر لوب رئيس قسم جراحة القلب في الكلينيك رئاسة مجلس المديرين التنفيذيين في المستشفى مؤخراً ولهذا خلفه في رئاسة قسم جراحة القلب الدكتور كروسكوف ، ولايزال لوب يمارس جراحاته ..

ولمصر ثلاثة أقطاب بارزين في الكيفيلاند كنيك سأكديك عنهم بترتيب قدومهم إلى الكلينيك .. (وبالمناسبة هو نفسه ترتيب أقدامياتهم في مصر ..) الدكتور فوزى اسطفانوس خريج عين شمس ١٩٦١ - عمل طبيباً بمستشفى سيدناوى حتى ١٩٦٧ حيث سافر انجلترا وحصل على زمالة التخدير من كلية الجراحين الملكية عام ١٩٧٠ فعمل شهراً في هولندا ثم عمل منذ ١٩٧٠ وحتى الآن في كليفيلاند كنيك ورأس قسم تخدير جراحة القلب والصدر منذ ١٩٧٦ وحتى ١٩٨٧ ومنذ يناير ١٩٨٧ أصبح رئيساً لأقسام التخدير في مستشفى كليفيلاند كنيك ولكنه لايزال يحتفظ بإهتمامه الشديد في جراحات

القلب والصدر حيث يمثل الرعيل الأول من أطباء التخدير الذين تخصصوا في مثل هذا المجال وحولوه إلى شبه تخصص مستقل . وفي ١٩٨٨ تولى فوزى اسطفانوس تحرير كتاب التخدير ومريض القلب بالاشتراك مع ٥١ مؤلفاً .. ومن أطباء التخدير المصريين الأمريكيين الذين شاركوا فوزى اسطفانوس تحرير هذه الكتب: عادل العتر في فلوريدا ورامز سالم في شيكاغو ونبيل فهمى في هارفارد وعزت أبو العيش في تكساس.

القطب الثانى : الدكتور فتنه فؤاد ، كانت أولى دفعاتها في قصر العيني ١٩٦٥ وحصلت على الدكتوراه في الأمراض الباطنية ١٩٧٤ من جامعة القاهرة ومنذ ١٩٧٦ وهى تعمل في الكليفلاند كلينك وتقود الدكتوراه فتنه بحوثاً متقدمة في مجال ضغط الدم وظائف القلب الانبساطية والانقباضية .

القطب الثالث : الدكتور محمد عبد الحميد تخرج من كلية الهندسة ١٩٦٧ وكان من أوائل الذين وقع عليهم الاختيار في مصر (الطموحة إلى التقدم دائماً) للعمل في المجال الذى اصطلح على تسميته فيما بعد بالهندسة الطبية، وعمل الدكتور محمد عبد الحميد في معهد السمع والكلام بامبابية وابتعث إلى إنجلترا بعد ذلك حيث حصل على الدكتوراه Ph.D وفي ذلك العام قدم كليفلاند ينتوى العمل لمدة عام ولكنه بقى حتى الآن لمدة أحد عشر عاماً .. ويرأس الدكتور محمد عبد الحميد معمل وظائف الاتزان في قسم الأنف والأذن والحنجرة وفي ذات الوقت يقوم بدراسة الطب في جامعة كيس ليجمع بذلك بين M.D و Ph.D.

أما في جامعة كيس ويسترن فيبرز عدد من النجوم المصريين في كثير من الكليات ولأنه لم يتح لى أن أتعرف عليهم جميعاً المعرفة التى تمكننى من الحديث عنهم فإننى سأعذر عن ذلك توكياً للامانة إلى أن تتاح لى هذه الفرصة ، وسأكتفى بأن أحدثك عن الدكتور عادل عبد الفتاح محمود رئيس قسم

الباطنة في كلية الطب وهو خريج طب القاهرة ١٩٦٣ وكان أحد الأقطاب البارزين في الحركة الطلابية والشبابية ، وهو الآن أحد الأقطاب البارزين أيضاً في مجال الأمراض المعدية .. ويقود فرقاً للبحث في كثير من المواقع ، وهو الذي تولى كتابة الفصل الخاص بالبلهارسيا في المرجع الطبى الكبير سيسل لوب.

ولابد أن أذكر لك كذلك بكل الخير قطبين بارزين من أطباء كليفيالاند الأحرار الذين يعملون خارج الجامعة أولهما الدكتور سيد حسنى خريج طب الاسكندرية ١٩٥٦ ، وقد قدم كليفيالاند في ١٩٧٠ حيث يمارس تخصص النساء والتوليد منذ ذلك الحين متمتعاً بسمعة طيبة وب نجاح مطرد ، وببته هو بيت المصريين في كليفيالاند وزوجته السيدة نادية هى أم المصريين في كليفيالاند وثانيهما هو الدكتور محمد الموانى وهو خريج طب القاهرة ١٩٦٧ وكان ثانى الدفعة وعمل نائباً لأمراض النساء والتوليد فمعيداً وهو اليوم من أبرز المتخصصين في جراحات الليزر والمناظير .

هل تسمح لى ياسيدى القارئ أن أعود بك الآن إلى أول صفحات كتبته في هذا الكتاب مصوراً على طريقة اليوميات ما صادفنى في كليفيالاند كليك !! هذه ياسيدى يومياتى الحقيقية :-

يوم الاثنين : قبل أن تبلغ الساعة الثامنة كنت واقفاً أمام السكرتيرة الإيطالية في المركز الدولى حيث كان على أن أملاً استمارة تفيد قدومى ، واستمارة أخرى من أجل التأمين الصحى واستمارة ثالثة من أجل استخراج البادج الخاص بى. حتى تصل زميلتها سألتنى السكرتيرة أن أبقى بعض الوقت في قاعة للمؤتمرات.

كى استخرج البادج كان على أن أسلك طريقاً محدداً ولا أقول طويلاً .
 تأخذ مصعد مبنى الفندق الذى أنت فى الدور الرابع منه حتى الدور الأول من
 الفندق وتمضى إلى الخلف حتى الباب الخلفى للفندق تنتظر هناك أتوبيس
 المستشفى الأبيض الخاص الذى يحمل حرف A سوف يقودك هذا الأتوبيس
 إلى المبنى المسمى شوستر ضمن المباني الأخرى التى يمر بها هذا الأتوبيس ..
 وهذا الأتوبيس ليس وحده الذى يؤدى هذه الخدمة المجانية فى التنقل بالأطباء
 والمرضى والزائرين والعاملين بين أرجاء مستشفيات كليفلاند والمرافق
 الأخرى المرتبطة بأقسام المستشفيات سواء الفنادق أو بيت الضيافة .. إلخ.

إذا وصلت إلى مبنى شوستر فعليك أن تأخذ المصعد إلى الدور A لأن هذا
 الدور الذى يوازى الشارع هو الدور C وتحت طابقان A&B وفوقه طابقان
 D&E وعلى هذا النمط كل أبنية المستشفى ف A لا يناظر A دائماً والأول
 لا يناظر الأول دائماً.. ربما ناظر الدور الثالث فى هذا المبنى وربما ناظر الدور
 الثانى فى مبنى آخر .. وربما ناظر البدروم الأول أو البدروم الثانى وهكذا ..

ولكنك مع ذلك كله لا تضطرب فى البحث عن هذه المناظرات بل ولا تفكر
 فيها على الإطلاق .. بل إننى مع تقدم الوقت بى فى المستشفى اكتشفت ولكى
 أكون صادقاً أو اكتشفت مجموعة من أساتذتنا المصريين الذين زارونا أننى
 أعرف بعض طرق المستشفى وتخاريمها Shortcut أحسن من بعض الذين
 يعملون هنا أكثر من ١٥ عاماً.. لأنك تجد التعليمات واضحة ومحددة
 واللافتات الدالة على ما أنت فيه ، وعلى ما تريد ، واضحة ومعبرة ومنشرة مع
 كل خطوة تخطوها.

وحين تذهب لاستخراج البادج فإنك تملأ استمارة أخرى وتوقع عليها
 وتجلس أمام كاميرا ، والكاميرا متصلة بالكمبيوتر ، والسكرتيرة تأخذ اسمك

وتكتبه على لوحة مفاتيح الحروف وفي ذلك الوقت توجه الكاميرا إليك لتأخذ صورتك في نفس الوقت ، ويخرج لك البادج سريعاً من هذا الجهاز الكاتب المصور المغلف والمحتفظ بالمعلومات في ذات الوقت . ماذا يسمونه ؟ لست أدري!! وفي التعليمات المكتوبة في الورقة أن هذه العملية تأخذ من عشرين إلى خمس وأربعين دقيقة ولكنها لم تأخذ معي أكثر من ثلاث دقائق .. أجد قلمي يريد أن يقول قل خمسة حتى لا تتهم بالمبالغة .

وتطلب السكرتيرة عشرة دولارات كتأمين لهذا البادج تضيق عليك إذا مارست هواية البشر في الاحتفاظ بالبادج كذكرى. أما إذا أردت الدولارات العشرة فعليك أن تسلم البادج في اليوم الأخير .

وها أنا أعود حيث أتيت إلى المركز الدولي في الطابق الرابع من الفندق. فإذا مسئولة التأمين الصحي في انتظارى لأملأ استمارة أخرى، ثم تعطينى ورقة بموعدي عند طبيب الأسنان في الساعة الحادية عشرة والنصف عند الديس S - 52 وكل اللقاءات على هذا النحو.. رقم للديس يتكون من حرف أبجدي ورقم. والرقم يعني رقم الدور من خانة العشرات والحرف الأبجدي الذي يدل على المبنى . إذن فعندي وقت من الساعة التاسعة والنصف حتى الحادية عشرة والنصف أقضيه عند الدكتور جبران الذي سوف يكون من حظي أن أعمل معه هذا الأسبوع. فلأذهب إلى F 25. وهذا هو رقم الديس الخاص بقسم القلب الذي سوف أعمل فيه . إذن فلا بد أن أذهب إلى مبنى F وهو كما تقول الخريطة هو المبنى الملاصق لمبنى الفندق .. إذن فلا داعي للأتوبيس هكذا أفكر بصوت عال أمام السكرتيرة التي توافقني وتقترح علي الذهاب عن طريق ما يسمى طريق السماء.. وطريق السماء هذا كوبرى مشاة طويل يبلغ طوله ٧٠٠ قدم عريض لا يقل عن ٥ أمتار، زجاجي الجنبات مكيف الهواء وبساطه من أفخم أنواع السجاد وجدرانها من أروع الديكورات

والزجاجيات..ربما يمر بخاطرك ذلك المر الضيق بين مبنيين للبنك الاهلى فى شارع شريف بالقاهرة ولكن هذا لايمثل واحد على المليون من جمال ولا جلال ولا كمال هذا المر طريق السماء الذى يربط مبانى مؤسسة كليفيلاندر كلينك الطبية معاً.

وفى طريق السماء هذا مصاعد لكل مبنى — فإذا إنتقلت من مبنى الفندق إلى المبنى F مثلاً .. فإنك لابد أن تنزل إلى الطابق الأول من الفندق وهو اللوى وفى نهايته تصعد طابقاً لتكون فى مستوى طريق السماء الذى تمضى فيه حتى تصل إلى مصاعد المبنى F وهناك تطلب إلى المصعد أن يقف بك [لا تقل هنا يصعد أو يهبط لأن الامر يختلف من مبنى إلى مبنى حسب مستواها مع طريق السماء] عند الطابق الثانى مثلاً ، وفى الطابق الثانى تبحث عن الديسك الذى أنت موجه إليه.

اما الدكتور جبران فقد بدأ المرور فى الرعاية المركزة هكذا جاءنى الرد بعد ما استدعوه بالليب ولكنى أنا الآخر ساكون مشغولاً بدءاً من الساعة الحادية عشرة والنصف .. ويجىء الرد مرة أخرى بعد الاتصال به بالليب .. إذن فلأذهب إليه بعدما أنتهى من كل ما يشغلنى. وأمامى قرابة المائة دقيقة يتيح لى الله لأكتب لكم هذا الذى بدأت كتابته عن كليفيلاندر .

هل يكون حديثى معك عن بعض التفاصيل فى مستشفى كليفيلاندر كلينك حديثاً ثقيل الظل بعض الشيء حين أحدثك عن المستشفى العظيم الذى أتيت لى أن أمضى فيه هذا الوقت المثمر .. نحن نقول دائماً بشيء من الفخر التعويضى إن أمريكا بلد بلا تاريخ أعرق ما فيه عمره مائتا عام .. نعم ياسيدى ولكن معظم ما فيه من رموز الحضارة الحديثة جداً أيضاً قد قارب عمره على المائة عام !! ونحن لانزال بين يوم وآخر حين نريد أن نرفع من قدر

شيء نلجأ إلى حقيقة واحدة أو إلى حيلة واحدة - لست أدري - فنقول أنه أول مركز وأول معهد وأول برنامج وأول مؤتمر .. إلخ. إذن فنحن في بلاد العراق معظم مؤسساتنا لم يبلغ العام، وهم في بلاد الحداثة معظم مؤسساتهم قارب المائة عام .

نحن في كليفلاند وفي كليفلاند أكثر من جامعة.. هل تعرف هذه الجامعة التي تسمى كيس ويسترن ريسرف يونفرستى؟ والتي ننظر إلى مستشفياتها - نحن الذين في كليفلاند العظيمة - من عل!! هذه الجامعة ياسيدى بدأت عام ٢٤ - طبعاً تظن أنها بدأت بالكاد قبل جامعة القاهرة بعام واحد - نعم لك الحق ياسيدى إذا ظننت ذلك، ولكن من حقلك علينا أن نقول لك إنها بدأت عام ١٨٢٤ وليس ١٩٢٤ .. وكليفلاند هذا الصرح الطبى أنشئ عام ١٩٢١ حين وجد ثلاثة من أساتذة هذه الجامعة أنهم سيتقاعدون بينما هم لا يزالون يحبون أن يمارسوا الطب .. فبدأوا ببناء هذا المستشفى وانتهوا منه في عام. وقد كان أجر العامل يوم بنوا هذا المستشفى دولاراً لكل ساعة ، وفي تلك الأيام كان الغداء يتكلف ٢٠ سنتاً أى خمس دولار، وكان طابع البريد بسنتين وقد قام أول مبنى في هذا المستشفى على مساحة ٧٦ قدماً x ١٢٠ قدماً واستخدم في بنيانه حوالى ٤٨٠ ألف طوبة وقد عهد بتصميمه إلى المهندس العظيم الليربى Ellerbe وهو نفسه الذى تولى بناء مستشفى مايو كلينك العظيم من قبل . أما اليوم فتقوم الكليينك على مساحة ١٠٥ هكتار أى أكثر من ١٠٠ فدان وتضم عدداً من المباني المتباينة تماماً في ذوقها وبنائها ومعمارها يبلغ عددها أكثر من ٣٠ مبنى ولكنها مرتبطة مع بعضها كما حدثتلك من قبل بطريق السماء وسأحاول أن أصور لك الأمر بشيء من التفصيل مع أن كل القرييين منى يجمعون على أنى أسوأ من يشرح !! .

أنت الآن في شارع يوكليد ، و الذى يُفترض أن عنوان الكينك عليه رقم ٩٥٠٠ شارع يوكليد ، ويوكليد هذا عالم يونانى . وأنت الآن قادم من وسط البلد .. ستجد إلى اليمين مبناً قديماً له مدخل صغير على الشارع تكاد العين تخطئه اليوم .. نعم لأنه اليوم مدخل فرعى لقسم صغير هو مركز الأورام..إذا دخلت من هذا الباب وحُذِرت الطريقة الطويلة التى تمر عبر قسم الأورام فلأنك تجد نفسك فى مدخل استقبال فسيح (يكفى عليه وصف فسيح لأننا سنصادف بعد هذا مداخل فسيحة جداً مدخل M ومداخل فسيحة جداً جداً كمدخل مبنى F&G ومداخل أخرى ليس إلى وصف فساتنها من سبيل كمدخل مبنى A) هذا المدخل الذى ستجده بعد قليل يمثل ياسيدى المدخل الحقيقى لأحد الأجنحة الثلاثة الضخمة التى تكون مع بعضها شكل حرف U الذى يتمثل معه المستشفى القديم تماماً . أما الجناح الأيمن فهو الذى يضم المبانى التى تحمل حروف M,S&T وأما الجناح الذى يمثل حرف U فيضم المبانى التى تحمل حروف A,G&F وأما الجناح الأيسر فهو مبنى البحوث . أما مبنى T فهو مخصص للعيادات الخارجية وأما حرف S فهو الآخر للعيادات الخارجية . والعيادات الخارجية مصطلح يعنى تلك الأجزاء من المستشفى التى لا تقتضى من المريض المبيت بالمستشفى ، إنما هو يأتى المستشفى يعالج أو يشخص من دون أن يبيت فيه ، وفى هذا المبنى فى الدور الخامس مثلاً عيادات الأسنان ، وفى الدور السادس القسم الذى يتولى تشخيص أمراض الجهاز الوعائى بواسطة الدوبلر وأما حرف M فهو مستشفى فيه عنابر داخلية، ويضم أيضاً مستشفى الطوارئ وفيه أيضاً عيادات الألم التابعة لقسم التخدير فيما بين حرف S وحرف M يوجد مبنى كامل للأغراض التعليمية اسمه مبنى التعليم Education فى هذا المبنى قاعات عديدة للمؤتمرات وفيه المكتبة .. وتجتمع هذه المبانى الأربعة M,S&T والمبنى التعليمى على مدخل

واحد جميل فيه الماكينات الخضراء التى تسمح لك بصرف أموالك التى فى البنوك ببطاقات الفيزا .. وفيه كافيتريا للوجبات السريعة .. وفيه خزانة للتأمينات والمستحقات وفيه ماكينات بيع الصحف وفيه أكشاك للإستعلامات وأكشاك للدعاية لمشروعات التوعية الصحية المتنوعة كالحملة ضد السموم — أو ضد السرطان أو ضد الإيدز أو من أجل التغذية السليمة .. إلخ ، وفيه مكتب للبريد .. كل هذا ياسيدى تجده فى المدخل الذى تبخل عليه عظمة كليفيالاند بكلمة فسيح جداً .

أكون مقصراً فى حق المبانى الأربعة إذا لم أقل لك إن لها مداخل أخرى فالمبنى T كما قلت لك له مدخل على شارع يوكليد نفسه والمبنى التعليمى مدخل خلفى على الشارع الشرقى التسعين وإلى الجانب الآخر من الشارع تجد أحد الجراجات الكبرى بالمستشفى ومبنى M وهو مبنى الطوارئ له مدخل هو الآخر على الشارع الشرقى التسعين .

هذه هى المباني الأربعة التى تمثل الجناح الايمن من الكتلة الكبرى من كليفيالاند كلينك ... تصور نفسك قادماً معى من وسط البلد ماراً بشارع يوكليد حيث الباب الصغير الذى يطل به مبنى حرف T على شارع يوكليد، فإنك تجد قبل هذا المبنى عدداً من المباني يطل على شارع يوكليد ولكنها لاتتنمى إلى كليفيالاند كلينك — ولكن وراء هذه المباني مباشرة يهمنى أمرها — وتقع الثلاثة فيما بين الشارع الشرقى التاسع والثمانين والشارع الشرقى التسعين إثنان منها جراجان .. أحدهما اسمه جراج الموظفين .. والثانى اسمه جراج التسعين أما المبنى الثالث فهو مستشفى ويحمل حرف P. ها أنت ياسيدى تدرك الآن أنه لابد لحرف P وللجراجات أن تتصل عبر الشارع التسعين بكتلة المستشفى الأصلية من دون أن يعبر المرضى أو الموظفون أو

الزوار الشارع .. نعم .. وهناك شبيه بطريق السماء فوق الشارع التسعين الشرقي . أعود بك إلى حرف U ها أنت قدمت من شارع يوكليد سواء بالسيارة أو على قدميك ودخلت في حرف U حيث النافورة التي تتوسطه والتي تمر حولها السيارات - وأنت الآن عرفت أنه في الشمال يقوم مبنى البحوث وإلى اليمين المباني الثلاثة M,S&T فماذا في الواجهة ؟ في الواجهة ياسيدى ثلاثة مبان أحدث عمراً من السابقة - تبدو لك كأنها مبنى واحد ولعلها كذلك .. مدخلها فسيح جداً جداً - ينضم إلى مدخلها جزء كبير من مساقط النور - ومساقط النور في هذا المدخل مغطاة بالزجاج ولكن ليس من الطابق الأول وإنما من الطابق الثاني .. وإذن فلارتفاعها عظمة شاهقة تريح النفس وتبهرها في نفس الوقت والفكرة المعمارية فيها تقليد لفكرة العمارة الإسلامية في مساقط النور الداخلية - والجلوس في هذا المدخل الكبير متعة كبيرة ، صالونات فخمة وزهور جميلة وتلفزيونات ذات شاشات كبيرة الحجم ، تكييف جميل ، فإذا ما تجاوزت المدخل الفسيح جداً إلى عمق المدخل حيث مساقط النور المغطاة بالزجاج الجميل على هيئة هرم أو نصف هرم أحسست بالراحة التامة من هذا المعمار المريح .

أما مبنى F فهو مخصص للعيادات الخارجية ومكاتب الأطباء وأما مبنى M&G فهما مخصصان للجراحات والرعاية المركزة والأقسام الداخلية للمرضى . وترتفع هذه المباني أحد عشر دوراً ، تريد أن تسألني عن بقية مباني الكليك . دعنا ننظر من على كما لو كنا في طائفة من فوق الكليك كله لأصور لك الأمر كله تصويراً بسيطاً . إذا كانت مباني المستشفى تطل على ميدان فسيح يطل على شارع يوكليد وإذا كانت المستشفى تأخذ شكل حرف U وإذا كانت مباني H&G وكذلك P بمحاذاتها تمثل قاعدة حرف U فعلام تطل هذه القاعدة من الجانب الخلفي ؟ إنها تطل ياسيدى على شارع عظيم لا يقل

اتساعاً عن شارع يوكليد وهو مسمى باسم رجل عظيم آخر هو كارينجى .
 أنت الآن ستدرك بذكاءك ، وأنه لابد هناك امتداد لكيفيلاند بعد شارع
 كارينجى نعم ياسيدى هناك مبنى ضخم جداً جداً هو مبنى حرف L وهو
 المخصص للمعامل .. وفيه جزء كبير شبه مستقل مخصص لأجهزة الرنين
 المغناطيسى وقد صمم معمار هذا المبنى بحيث لا يسمح للتأثيرات
 المغناطيسية أن تؤثر على الأجهزة العاملة فيه وقد كان هذا هو الاعتقاد فيما
 مضى ، أما بعد التطوير التكنولوجى فقد أمكن التغلب على هذه الصعوبة .
 طبعاً ياسيدى لابد من طريق السماء يعبر فوق شارع كارينجى ليوصل
 المعامل بمباني المرضى H&G وببقية كتلة المستشفى . حين أكون واقفاً في
 حجرات المرضى في الرعاية المركزة في مبنى G فإننى أطل على شارع كارينجى
 من هذه الحجرات . وشارع كارينجى هذا من حيث المرور يطبق قاعدة مهمة
 جداً فهو من يوم الإثنين وحتى الجمعة من الرابعة وحتى السادسة والنصف
 يكون اتجاهها واحداً فقط ناحية الشرق ، وفيما عدا ذلك فهو اتجاهان .

لك ياسيدى أن تتجاوز كل هذه الفقرات التى أكتبها في وصف المباني
 والخرائط وتستغفر لى ولنفسك عن اللحظة التى فرضت فيها على نفسك أن
 تقرأ هذا الكتاب الممل - ولكننى لن أسامح نفسى إذا أهملت وصف المباني
 والشوارع والممرور - وأهملت من الحضارة إنجازاتها الرائعة وتنظيمها الدقيق
 وتغلبها على كل المشكلات التى تصاحب النمو المتراكم والاتساع المدروس عبر
 السنوات .

أريد أن أقول ياسيدى إن هذه المباني التى أحدثك عنها ليست مبعثرة أكثر
 من بعثرة مباني طب عين شمس التى تظنها متبعثرة بين عين شمس
 التخصصى على يمين الخليفة المأمون .. وعين شمس القديم على شمال

رمسيس والدمرداش من خلفه والنساء الجديد مستشفى الأطفال ومركز الطب النفسى فى عرب المحمدى ومبانى الكلية والدرجات والاكاديمى خلف مسجد النور . وليست مبعثرة أكثر من بعثرة مستشفى قصر العينى القديم والجديد وأبو الريش واليابانى ومستشفى الباطنة والدرجات والاكاديمى ومستشفى النساء... إلخ. ولكنهم ياسيدى أكثر من قدرة على الربط و التوحيد، وتحويل الأنغام المتفاوتة والضربات المختلفة التون إلى سيمفونية واحدة .. هذه هى موسيقى الإدارة والتخطيط ياسيدى .

□□ خراطى واضحة .

□□ مسميات لا لبس فيها ولا تكرار تعتمد على الحروف والارقام والاختصارات لا على الاسماء الطويلة أو الرنانة أو المكررة .

□□ لوحات إرشادية مبعثرة فى كل مكان .

□□ معمار جميل يبتدع أشياء من قبيل مايسمى بطريق السماء طريق مقفول لا مدخل له إلا من هذه المبانى - عال لا يشغل الأرض لا يقطع المرور ولا يقطع هو المرور ، جدرانه من الزجاج تجعله واضحاً وتجعل السالك فيه مهتدياً تماماً إلى المواقع التى من أمامه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله . مزدوج الفائدة إذ تتم فيه أيضاً برامج تاهيل المرضى بالمشى بعد العمليات الجراحية الكبرى .

وأعود بك ياسيدى إلى مبنى المعامل لأذكر لك أنه يحتل الكتلة الكاملة التى بين الشارعين الشرقيين الثالث والتسعين والسادس والتسعين فكانما الشارعان الرابع والتسعون والخامس والتسعون جزء من كتلته لو كان لهذه الكتلة أن تنقسم على نحو ما تقسمت فى مواضع أخرى من المدينة . وها أنت

تدرك الآن أنني لا أذكر لك الشارع السادس والتسعين إلا لأحدثك عن مبنى جديد يطل عليه .. نعم ياسيدى هناك مبنى للبحوث يطل عليه . إذن وعلام يطل مبنى البحوث الجديد هذا ومبنى المعامل من ناحيتهما الأخرى .. إذا كانا يطلان يواجهتهما على شارع كارنيجى فإنهما يطلان من الناحية الأخرى على شارع سيدار . وهو مواز لكارنيجى ويوكليد .

ياالله .. هل رأيت إلى الآن كيف تمتد المستعمرة لتطل على ثلاثة شوارع رئيسية كبرى من التى تعبر كليفلاند من شرقها إلى غربها .. وسيأتى ذكر الرابع والخامس فيما بعد . لم يعد أمامنا كثير .. فها نحن الآن فى الشارع الشرقى السادس والتسعين الذى تستطيع أن تصفه بأنه الشارع العرضى الذى ينصف المستشفى تماماً أو هكذا يبدو لك فى الخريطة وفى الواقع .. أنت الآن تدرك أيضاً لماذا يطلق على المستشفى رقم ٩٥٠٠ يوكليد لأنها ياسيدى (أو لأن بابها القديم) كان على شارع يوكليد فى المربع الذى بين الشارعين الشرقيين ٩٥ و ٩٦ وهكذا تستحق رقم ٩٥٠٠ — على أنتهز الفرصة هنا لأشرح للقارئ أن الأرقام الضخمة التى يجدونها للبيت فى الشوارع ليست ذات دلالة على أن هذا الشارع ٩٥٠٠ بيت مثلاً . وأحياناً تصل الأرقام إلى خمس خانات وليس معنى هذا أن البيوت فى الشارع (أو الطريق تصل إلى تسعة وتسعين ألف .. ولكن المسألة فى منتهى البساطة أنهم يتكون خانتي الأحاد والعشرات للبيوت التى فى المربع حتى ولو كانت بيت واحداً .. لماذا ياسيدى يفعلون هذا — حتى يسهل التعرف على موقع البيت فى الشارع الطويل بموقع الشوارع العريضة فأنت فى منتهى السهولة تستطيع أن تدرك أن ٩٥١٠ شارع كارنيجى يكون موازياً لـ ٩٥١٠ شارع يوكليد .. وهكذا دعنى لا أترك هذه النقطة إلا بعد أن أذكر لك أن مؤدى هذا كثيراً من الشوارع لن تبدأ أرقامها من رقم ١ ولا حتى من رقم ١٠١ وخذ على سبيل المثال الشارع

الذى سكنت فيه أنه يبدأ برقم ٢١٠٣ ومعنى هذا أن حدوده على الخريطة لا تبدأ إلا عند الشارع الشرقى الواحد والعشرين وهكذا . وفى أمريكا تجد الشوارع التى تمضى من الشمال والجنوب تحمل أرقاماً ، أما الشوارع التى تمضى من الشرق إلى الغرب فتحمل أسماء . وفى مدينة واشنطن تحمل شوارع الشرق إلى الغرب حروفاً بالإضافة إلى الأسماء . لم أجد هذا الشرح مكتوباً فى كتاب ولكنى أجهدت نفسى حتى استنتجت ، ولم أحصل على اعتماد رسمى له بعد ولكنى مع هذا أحب إن أقول لك إن بوسعك الاعتماد على هذه المعلومات.

أعود بك ياسيدى إلى الشارع السادس والتسعين حيث يفتح الفندق الخاص بالكلينك أبوابه على الشارع .. وفوق هذا الشارع يمر طريق السماء .. وعلى هذا الشارع نوافذ عديدة لمبنى البحوث ومبنى F ومبنى G ومبنى L ومبنى للبحوث غير ذلك المبنى المتصل بالمستشفى F وهو مبنى البحوث الثانى الذى يطل على سידار والسادس والتسعين . على هذا الشارع أيضاً يطل مبنى كبير جداً ومهم جداً لا يقدر قيمته غير المصرى الذى يذهب القاهرة من حين إلى آخر فىرى الجراجات متعددة الأدوار ويشكر للحكومة جهودها فى بنائها .

هذا هو الجراج الثانى من جراجات المستشفى واسمه جراج شارع يوكليد يطل من الشمال على يوكليد ومن الشرق على السادس والتسعين ومن الغرب على مدخل المستشفى (بحيث يكون على يدك اليسرى وأنت داخل المستشفى مقابلاً لمبنى T&S ومحاذياً لمبنى البحوث المتصل بالمستشفى F وبين مبنى شارع يوكليد طريق صغير اسمه طريق الكلينك تمر به كل السيارات التى تريد أن تأتى من كارنيجى إلى باب المستشفى.

يحتل الفندق (وكذلك مبنى البحوث الثانى المطل من بعد على سيدار] مربعاً يمتد ما بين الشارع السادس والتسعين والشارع المائة وفيما بين الشارع الشرقى المائة والشارع الشرقى الثانى بعد المائة هناك الهرم الضخم أقصد المبنى الجديد ذا الأدوار الخمسة عشر على هيئة الهرم الذى أفتتح عام خمسة وثمانين .. وهو مبنى A وكل هذا المبنى مخصص للعيادات الخارجية .. والعيادات الخارجية هنا تتسع لتشمل كثيراً مما نسميه فى الطب بالـ Procedure أو العمليات التى يقوم بها الأطباء الباطنيون كالمناظير مثلاً - وكذلك القسطرة فى القلب ، ولو أن القسطرة هنا مرتبطة بمبنى المستشفى نفسه لارتباطها الآن بكثير من الجراحات.

وفى الحقيقة أننا فى مجال الطب فى البلاد المتكلمة بالعربية لم نحدد حتى الآن كلمة لمثل هذه العمليات Procedure ومع أنه يصدق عليها كلمة عمليات بالفعل ولهذا فإنه يمكننا أن نقول عنها العمليات فحسب ونخصص كلمة الجراحات للعمليات الجراحية .. ويصبح الفرق واضحاً بين الـ Procedure والـ Operation أو بين العمليات والجراحات إلا أن هذا الذى أقترحه الآن فى هذه الفقرة لم يجد مكاناً على أرض الواقع بعد، ربما يأخذ أساتذتى وزملائى بما أرى . ولكن من الصعب (خائنى القلم - أريد أن أقول وليس من الصعب) أن يتفهم الجمهور فى المستقبل ذلك الفرق حين يرى اللافتات وقد كتب عليها حجرة العمليات ولافتات أخرى وقد كتب عليها حجرة الجراحات .. فأنا من الذين يحسنون الظن بالجمهور إلى أبعد الحدود.

وأذكر أنني كنت من الحريصين دائماً على لفت الأنظار (بل والتغيير باليد فى كثير من الأحيان) فيما يتعلق بتسمية الأمراض الباطنية - كانت كشوف أقسام الكليات ووزارة الصحة تسميها الباطنية - وكنت لا أترك فرصة التنبيه

إلى ذلك حتى مع الموظفين الذين يكتبون الكشوف في الكليات المختلفة حين كنت أتولى إصدار الخبرات الطبية — لا أزعج أنني صاحب دور كبير في هذا التصحيح ، ولكنى أستطيعؤكد أن أحداً من حوالى خمسين نبهتهم إلى هذا لم يرفض ما طلبت إليه وهذه نسبة عالية جداً من الإيجابية التي يتمتع بها شعبنا العظيم العريق ومن الطريف أن واحداً من أساتذتى الأفاضل قال لى مازحاً الله يفتح عليك، ريحتنا من سيرة الباطنية بكل ما فيها من موبقات .. يقصد السمعة التي يتمتع بها حى الباطنية في تسويق المخدرات . وقد أفتد بالطبع من هذه اللمعة .

إلى الجنوب من مبنى A نجد الجراج الثالث واسمه جراج الشارع المائة .. يطل على شارع كارنيجى بواجهته البحرية ويطل بواجهته القبلية على شارع وليبر وهو شارع طولى آخر يقع بين كارنيجى وسيدار . ولا يبدأ إلا بعد الشارع المائة .. فيما بين كارنيجى ووليبر وإلى الشرق من جراج الشارع المائة نجد مبنى B وهو مبنى مستشفيات .

وفما بين كارنيجى ويوكليد وإلى الشرق من مبنى A الضخم نجد ثلاثة مبان متالية مبنى الغسيل الكلوى ويحمل حرف D وبعده مبنى يحمل اسم يوتر ميللين ثم مركز حصوات الكلى الأولان فيما بين ١٠٢ و ١٠٥ والآخر إلى الشرق من ١٠٥ . إلى هنا ياسيدى تنتهى كل مستعمرة الكينك التي على يمينك وأنت قادم فى يوكليد من غرب المدينة ومن وسطها - إلى شرقها . كل هذا على يمينك وكل هذا متصل تماماً ببعضه حتى مبنى A بطريق السماء بالإضافة إلى الأتوبيسات الخاصة التي تنتقل بين مباني المستشفى .

ماذا عن اليسار ؟ ما هي المباني التي إلى يسارك وأنت قادم من وسط المدينة فى يوكليد. هناك إلى الغرب وقبل أن تصل إلى أول باب للمستشفى على

يوكليد .. هناك وقبل الشارع التاسع والثمانين تجد مبنى من مباني المستشفى يقع ما بين يوكليد إلى الجنوب وشيستر إلى الشمال، وفيما بين التاسع والثمانين والتسعين هناك متحف كليفلاند للوعى الصحى وفيما بين التاسع والثمانين والتسعين تجد مساحة كبيرة من الأرض الفضاء ولافتة ضخمة تحمل عنوان برج الكليتك لا أدري هل سيقوم فيها هرم جديد ضخم ولكنى أعتقد أنه لابد من ذلك ربما بعد ٢٠٠٠ مباشرة !! وفيما بين الثالث والسابع والتسعين يقع بيت الضيافة الخاص بالكليتك. وفيما بين السابع والتسعين والأول بعد المائة مبنى W وهو مركز شيستر للمؤتمرات .. وهو المبنى الذى نحصل منه على البادج الذى نمرره من ظهره فى الأبواب فتنتفتح وفى عواثق الجراجات فترتفع ونمضى به فى طرقات المستشفى وحجراته فيعرفنا زملاؤنا ويعرفون كل ما يحبون عن تخصصاتنا ومكانتنا.

الفصل السادس في قسم القلب بـكليفيلا ند

أحب أن أصور لك بعضاً من الطب الاكلينيكي في مجال القلب (Clinical Cardiology) وكيف يمارس الاطباء الأمريكيون الطب على الرغم من انغماسهم إلى آذانهم وربما إلى أعلى من آذانهم في الطرق الحديثة للتشخيص (الدراسات الكهربائية الفسيولوجية ، أو الدراسات غير النافذة بالموجات فوق الصوتية، والطب النووي ، والرنين المغناطيسي، أو بدراسات رسم القلب ذى المجهود أو الديناميكي فضلاً عن دراسات القسطرة وتصوير الأوعية) .

سأجلسك معي عند واحد من هؤلاء الاطباء الذين ينتمون إلى هيئة الاطباء Cardiology Staff بعد أن انتهى من معمل القسطرة . هذه هي أولى المرضى وهي سيدة في الرابعة والستين من عمرها نطالع في ملفها المتضخم تقريراً مطولاً بنتيجة الفحص الاكلينيكي الذي أجرى لها ، والفاحص ليس معنا ولا أمامنا وكأننا إذن فيما نسميه في امتحان الدكتوراه المصرية بالحالة المطولة التي يفحصها الفاحص (طالب الدكتوراه) ويكتب كل شيء عنها ويمضى لحال سبيله من دون أن يحضر أمام الممتحن ! الفحص أكثر من ممتاز ، دقيق ، وشامل ، ومنظم ، وقد استطاع الفاحص أن يستقصى كل شيء تقريباً حتى تاريخ العائلة كله بدءاً من الأم والأب والأخوات .. إلى الجدود إلخ . وكيف

انتقلوا إلى العالم الآخر . صدق أو لا تصدق أن الذى يتولى هذا الفحص ممرضة (أو ممرض) على مستوى عال من الكفاءة والتدريب والدراسات العليا بعد نيابة متصلة متواصلة .

هذه هى الأشعة وهذا ما نسميه (ظل العملة) فى رئة السيدة والذى قد يوحى لنا أن هناك شيئاً سرطانياً مثلاً قد أصاب هذه الرئة .. وبخاصة أنها مدخنة لم تتوقف عن التدخين ، وأن أشعتها منذ ٤ سنوات لم تكشف عن هذا الظل . السيدة لم تأت إلينا لهذا السبب بالطبع وإنما جاءت تشكو سرعة ضربات قلب ، ورسم القلب ينبئ عن أنها مصابة بالرجفان الأذيني Atrial Flutter وهى حالة علاجها سهل وميسور ولكنه سيدوم معها لفترة طويلة واجتماع هذه الحالة مع شيء فى الرئة لا بد أن يجعلنا نبحث عن الطبقة البطانية من القلب وهل أصابها ارتشاح أم لا . وفيما عدا هذا ليس هناك ماتشكو منه السيدة سوى أنها تظن أن هذه الضربات قد تكون نتيجة لحالة الضيق التى اعترت أحد شرايينها التاجية من قبل واستدعت توسيعه بالبالون - وأودعت فى ملفها صور شرايينها قبل التوسيع وبعده بما ينبئ أن عملية التوسيع بالبالون قد نجحت . و يضم ملف هذه السيدة مالا يقل عن مائتى صفحة . و ليس فى تحليلاتها الحديثة إلا زيادة فى نسبة Alkaline Phosphatase وهى زيادة يمكن التعويل عليها فى ترجيح احتمال وجود إصابة ورمية ما .

و بعد الفحص اكلينيكي كامل يضع الطبيب قراره أمام مريضته :

□□ لابد من إجراء أشعة مقطعية على الصدر ، ولا بد من إجراء تحليل الدرن . و يقوم الطبيب بنفسه إلى سكرتارية العيادة الخارجية للتوصية على تنسيق هذه المواعيد فى الغد ثم يعود إلى مريضته بالمواعيد !! □□ لا بد من إجراء تحليل للغدة الدرقية رغم أن الفحص الإكلينيكي قد أظهر سلامتها ولكن لا بأس من الاطمئنان ..

□□ فيما يتعلق بعملية التوسيع وتقييم مدى نجاحها لا بد من إجراء اختبار
رسم قلب بالمجهود بعد الفراغ من التحليلات السابقة .. وفى ذات الوقت
لا بد من فحص القلب بالموجات فوق الصوتية !!
□□ لا بد من أن يتولى طبيب صدر فحص الصدر وأشعته ونتائج الأشعة
المقطعية .
□□ لا بد من إيقاف التدخين . لا بد من فحص الثدي كل عامين ، ومن المرور
على طبيب أمراض النساء والولادة كل عامين .
□□ هذا هو الديجوكسن وهذه هى جرعته!

الحالة الثانية رجل قارب الثمانين تصحبه زوجته ، يفاجئة ظلام أمام
عينيه Syncope حيناً بعد حين . له آرائه الذاتية فى الطب والأدوية .. الطبيب
يحترم آرائه من دون أن يسلم بصحتها ، والمريض معتز بآرائه .. والطبيب
يكرر احترامها ثم يلفت نظره إلى أنها آراء شخصية . وسوف نجرى لك
ياسيدى الفحوص الكفيلة بأن تكتشف سبب هذا الذى يحدث لك وإذا
استدعى الأمر علاجاً فى المستشفى كمريض داخلى فسوف نخبرك
بالتشخيص ولك وحدك مسئولية اتخاذ القرار ... قد تحتاج إجراء دراسات
كهروفسيولوجية قد تقتضى أسبوعين من البقاء فى المستشفى ، ونحن نعرف
أنك لا تريد ذلك ولكننا سنرى فى الغد فى معمل القسطرة ما هو القرار الأمثل
لحالتك .. وهذا المريض لا يقل إرهاقاً لطبيبه عن أى مريض من مرضى
الشرقية الذين يقتلون الدكتور لطفى شهوان كل ظهيرة وكل مساء ..
والصعوبة فى هؤلاء المرضى ياسيدى القارئ وأرجو ألا تكون منهم أنهم
يريدونك أن تؤمن بما يقولون من تفسيرات ، لأنهم يريدونك تؤمن على
ما يروون من أعراض! وشتان بين الحالين ! ثم إنك إذا جاريتمهم من باب أدب
الاستماع إلى محدثك للنهاية أصبحت فى نظرهم لا مجرد مؤمن فحسب على
كلامهم ، ولا مجرد مؤمن بكلامهم ، وإنما أصبحت بحكم هذا الإيمان

الظاهرى الذى يتوهمونه قد أصابك واحداً من الاتباع الذين عليهم طاعة من يؤمنون به !!

ربما كان من الصعب عليك ياسيدى القارئ أن تتصور أن هذا يحدث ، ولكن الأطباء الممارسين يعرفون أن الذى يحدث ليس إلا الصورة المكبرة من هذا التصوير اللطيف الذى يكتبه واحد منهم فى ساعة صفاء وتأمل ورضاء نفسى .

لا بد من الوقوف واستئذان هذا المريض وزوجته .. والطبيب يقف ولكنى غير قادر لأنى أعرف أن مثل هذا المريض سيوقف الطبيب بعد كل هذا مرة أخرى وأنا لست غير قادر على الوقوف أثناء هذا الاستيقاف ولن أنهض من كرسي حتى يفتح الطبيب باب الحجرة بيده اليسرى ويمد قدمه اليمنى إلى خارجها .. وأقول لك أننى كنت على حق لأن مد يد الطبيب اليسرى إلى الباب لم يحدث إلا بعد عشر دقائق ومد قدمه اليمنى إلى خارج الحجرة لم يحدث إلا بعد عشر دقائق أخرى .. وكانت الدقائق العشرون بالطبع كافية لاصابتي أنا الصائم المعانى من آثار التخدير فى الضحى باغماء حقيقى لا مجرد هذا الذى يشكو منه مريضنا فى بعض أحيان متفرقة .

المريض الثالث رجل وسيم ضخم البنية ، يقدمنى إليه الطبيب فإذا به يعرفنى تماماً ، ويقول لنا إنه رأى من قبل حين كان بأعلى Upstairs نعم أنا أعرف وجه هذا الرجل وقد تذكرته من أول نظرة ، ولكنى أحسبه أحد الذين حضرت قسطنطهم .. والقسطنط تجرى فى نفس الدور الثانى .. كيف يقول هذا الرجل بأعلى .. أهو لا يعرف الأدوار !! ولكنى سرعان ما انتبه إلى الرجل وهو يسألنى كم يتبقى من رمضان ياسيدى !! يا الله !! الرجل يعرف أننى صائم فى رمضان .. هذا لا يتاح لمريض القسطنط الذى ندخل فيه على عجل بعيداً عن كل طعام وشراب .. الآن فقط تذكرت .. هذا المريض زرناه بعد عملية توسيع

الشرابين وكان في الدور السابع .. أصاب المريض وأخطأ الطبيب الذى يحسن الناس في كل مكان الظن بذاكرته الحديدية .. أو التى علاها الصدا ، و علاها الصدا تعبير متفاعل بديل عن التعبير الأكثر صواباً وهو أنهكها الصدا كما ينهك الحديد .. وليت ذاكرتى كانت خشبية فقط !!

هذا الرجل يتعاطى ما لا يقل عن اثني عشر دواء ومن واجبنا اليوم الخميس أن نعيد تنظيم هذه الأدوية له قبل خروجه بيومين فمن المقرر أن يخرج السبت ولا بد من أن نطلع على آثار سياستنا الدوائية في خلال الساعات الثماني والأربعين القادمة قبل أن يخرج ويسافر ويشكو بالتليفون!! هذا الرجل تصحبه زوجته وهى سيدة ممتازة ، لا تزال رغم سنواتها السبعين محتفظة بروح التلميذة المجتهدة ، معها بطاقات صغيرة بتفصيلات كل شىء، بالأمس صباحاً في الثامنة صباحاً أكل زوجها كذا وكذا ، وبعدها بسبع دقائق تقىء تقريباً كذا وكذا ، وبعدها بساعتين تناول مشروباً وفي الثانية وعشر دقائق اشتكى من كذا .. ثم إنه فقد حوالى كيلو جرام من وزنه ا كان مائتى رطل وأصبح ١٩٨ ، ولا تنس ياسيدى أنه حين دخل المستشفى كان وزنه ٢١١ رطلاً . وكل دواء وكل جرعة مسجلة في هذه البطاقات الصغيرة التى تحملها هذه السيدة العظيمة في جيب معطفها ومعها قلمها ، وهى تستمع إلى كل ملاحظة يبيدها الطبيب وتسجلها من فورها في الموضع المناسب من هذه البطاقات وزوجها هو الآخر رجل عظيم ، نقاشه يعطيك الإحياء بأنه من الذين يجيدون معاملتك على أنك برىء حتى تثبت إدانتك مع إيمانه التام بأنك متهم حتى تثبت براءتك! وأنتهز فرصة انشغال الطبيب الأكبر في الرد على تليفون لأسأل السيدة عن مهنة زوجها .. كان ياسيدى قبل تقاعده يعمل في شركة تأمين ، كان يتولى فحص قضايا التعويضات كلها .. صدق رسول الله : اتقوا فراسة المؤمن! .

ها نحن ننتهى مع السيدة إلى إيقاف حبوب البوتاسيوم نهائياً ، وإلى

الإمساك عن مجموعة أدوية المعدة والأمعاء والكولشسين الخاص بالنقرس حتى تهدأ المعدة من تهيجها ، ثم ها نحن نعيد تنظيم جرعات الكابوتين والكوردارون والديجتالز واللازكس كل هذا قبل أن نقوم إلى حجرة الكشف .

في حجرة الكشف يكتشف الطبيب أن جرحاً في الساق لم يلتئم من القصد الأول .. فيذهب بنفسه إلى السكرتارية ليستدعوا أحداً من الجراحة .. لا بد من أخذ مسحة من الجرح لإجراء مزرعة - و يأتي رئيس التمريض الجراحى ويتولى تنظيف الجرح وربطه - وها نحن نضيف مضاداً حيوياً جداً هو الأوجمنتين ولا بد من كتابة روشتة للسيدة بالأدوية التى ستحتاجها طيلة شهر كامل وباعادها على وجه التحديد - تسعون قرص من هذا ، وأربع وعشرون من ذاك ، وثلاثون من ذلك ، وهكذا وليس هناك شىء بالتقريب في هذا البلد ، فالتحديد قد يكلفهم شيئاً من وقتهم عند التخطيط ولكنه يوفر لهم أضعاف ما ينفقون فيه .

بعد كل هذا يتلطف الطبيب في إخبار الزوجة بأنه سيكون سعيداً لو طلبه طبيب الولاية التى يقيمون فيها تليفونياً ، وسأله عن كل شىء أو عن أى شىء فإن ملخص الخروج لا يغنى شيئاً عن حديث التليفون!! مع أن هذا الذى يسمونه ملخص الخروج ست صفحات مكتوبة على خير ما تكون الكتابة على الآلة الكاتبة وفيها كل شىء .. ولكنه معنى آخر من معانى الإنسانية! والسيدة تعقب وتحكى لى أنهم كانوا في زيارة إبننتهم قرب بوسطن وكانوا يظنون أنفسهم يعودون إلى ولايتهم فلوريدا بعد أسبوع وهام لا يعودون إلا بعد ستة أسابيع!!

أظننى ياسيدى القارئ قد أطلت عليك فيما لا أظنك مغرمأ به من هذا الذى نراه كل ساعة أو في كل ساعاتنا .. لا عليك ولا عي من هذا التعذيب. تريدنى ياسيدى أن أنتقل بك من حجرات الكشف الباطنى إلى معامل القسطرة وعندك حق .. لك الحق في أن تمل عملنا الإكلينيكي وأن تمل القراءة

عنه في كتاب رحلات .. ولكنى لا أظن أن لي الحق في أن أتجاهله وأنا أحكى لك .. هل كان في وسع المتنبي أن يسكت عن شعب وما فيه ؟ نعم أن الشَّعْبَ لشيء جميل .. ولكن أجمل منه الحضارة التي نعيشها اليوم .

وأنا أعرف أن مهمتى في كتابة رحلاتى شاقة عسيرة لأنى لا أصف الطبيعة كما فعل الذين سبقونى .. ولكنى أحاول أن أصف الحضارة ، ووصف الطبيعة لا يستلزم إلا الحاسة الصادقة .. أما وصف الحضارة فيستلزم مع هذه أقدارا متنامية من الدقة والإحاطة والتعمق والفهم والترتيب .. ويستلزم قبل ذلك أن تكون جندياً من جنود الحضارة لا فارساً من فرسان الطبيعة ، أن تكون جندياً قارب نيل الشهادة وأثخنه الحضارة بأثار عمله من أجلها قبل أن تكون فارساً أعطته الطبيعة بقدر ما استمتع بها .

فلنأخذ يوماً من الايام التى سعدت فيها بالعمل في معمل القسطرة مع الدكتورين جريجيرا وفكس هذه هى أسماؤهم الأخيرة أما أسماؤهم الأولى التى نتنادى بها فهى فرناندو وجيمس . بدأنا بحالة مريض بالشریان التاجى .. نحاول أن نوسعها بالبالون . لم تفلح محاولة البالون .. كان فرناندو جاهزاً بالآلة الجديدة التى تقطع أو تمزق أو تفتت هذا التصلب الموجود على بطانة الشرايين .. وها هو يفعل ويذيب هذه التصلبات التى في الجذع الرئيسى للشريان التاجى الأيسر ، و في الفرع الدائرى. الحالة الثانية ألم في الصدر غير معروف السبب ، وهو محول إلى هذا الصرح لنرى موقف شرايينه التاجية .. بدأ فيكس فركب القسطرة وأتم كل التحضيرات وحين جاء فرناندو وصورنا المناظر الروتينية كلها اتضح أن شرايين الرجل كلها لا تعاني من أية ضيق .. سجلنا كل هذا وأجرينا بالطبع ما لا بد من إجراءاته في كل حالة وهو تصوير البطين الأيسر بالصبغة بينما كنا ننادى على المريض الثالث فقد أما المريض الثالث أتاه احتشاء قلبى منذ أسابيع ثلاث و اتضح أن سببه خثرة thrombosis

اذيبت في وقتها . وهو الآن محول إلى القسطرة قبل أن تجرى له عملية الـ - By Pass
 يفحصه الدكتور جريجيرا فيجد الشرايين كلها مفتوحة ، ولكن الجذع
 الرئيسى للشريان الأيسر فيه ضيق لا يتعدى الخمسين في المائة ! ولكن الضيق
 واضح ومع هذا تمتلئ الشرايين وتفرغ تماماً .. صحيح أن القلب لا يزال
 متأثراً بالنذبة التي تكونت نتيجة الاحتشاء ولكن الإمداد الدموى سليم .. هل
 تُجرى لهذا المريض جراحة قد تكلفه حياته وهو الذى لا يعانى من شيء الآن
 أم نتركه معرضاً لخثرة أخرى قد تكون كفيلة بالقضاء على حياته - وهو فى
 الخامسة والأربعين . هذا هو السؤال الذى أخذنا نحاول الإجابة عليه لمدة
 ساعتين .. بعد أن جاء الدكتور تايلور الجراح المحول إليه المريض .. وبعد أن
 اشترك معنا فى الحديث طبيب القلب الدكتور كايسر .. كنا أربعة نتحدث بينما
 جيمس صامت .. فلما قاربنا على الإفتراق صمم الجراح الكبير على أن يسأل
 جيمس ما رأيك وهو يعرف أن جيمس لن يقول شيئاً لأنه لو أراد لقال منذ
 مرحلة مبكرة ولكن الأستاذ حريص على أن يرضى ضميره الذى تعود على
 سماع كل وجهات النظر.

أما معامل الموجات فوق الصوتية فتضم ١٦ جهازاً وهى بالتالى قادرة على
 أن تؤدى ٨٠ — ١٠٠ حالة فى اليوم — ولكنها فى المتوسط تجرى ٢٥ حالة فى
 اليوم لأنها تعمل كل يوم ولا تكف عن العمل وليس هناك طابور طويل يقف
 فيقف كل من فيه .

وفى وسع الأمريكان أن يستمعوا إلى الرأى القائل بأنه لا ينبغى لهم أن
 يشتروا جهازاً جديداً ولا أن يضيفوا إلى الأجهزة الجديدة آخر ما دامت
 الأجهزة الموجودة من قبل لم تستنفد طاقتها ٢٤ ساعة .. كما ينادى بعض
 البيروقراطيين المصريين الذين يرتدون مسوح الثورية الشديدة فى الوقوف
 أمام كل توسع فى الامكانيات الموجودة فى مواقع الإنتاج . ولكن هؤلاء الأمريكيين

قوم تعلموا منذ زمن حكمة الخالق جل علاه الذى جعل لكل عضو من أعضاء الجسم احتياطي كبير بحيث لا يحس الجسم أى أثر طارئ يعترض أى عضو من هذه الأعضاء.

فنبو الموجات فوق الصوتية والمرضات هم الذين يقومون هنا بالفحص، ولكن الأطباء وقد خلت أيديهم من المسابر (المجسات) يقفون على رؤوس هؤلاء في كل حين يراقبون ويصححون ويتدخلون ويعيدون منظرًا أو صورة ويتأكدون من قياس أو نتيجة وينظرون جلطة أو كتلة أو أنوريزما ويتبعون مسار حلقة عضلية أو جهازاً من أجهزة تدعيم الصمام المترالي .. وهكذا .

وكل هؤلاء عندهم فكرة أننى قادم اليوم وأن « كيف » ينتظرونى ولكنه مع حالة في حجرة ، ويتكرر أمامى اسم « كيف » هذا وفى النهاية إذا به دكتور عاكف أبو الرميلى من الضفة الغربية ، وفيما بعد أسبوعين وجدت مرضات الأدوار العليا يختصرون اسمه بطريقة أخرى فيسمونه الدكتور « أبو » لأنهم لا يعرفون كيف ينطقون « الرميلى » وقد سبقه إلى هنا طبيب فلسطينى آخر كان واحداً من فلسطينيين عديدين هيا لهم الدكتور جبران الفرصة للعمل في المستشفى من خلال هيئة فلسطينية محترمة مقرها في سويسرا تتولى تمويل تعليم هؤلاء إلى الحد الممتاز الذى يجعلهم بمثابة مراجع عليا في الضفة الغربية المحتلة . وهذه الهيئة الممتازة لا تكتفى بتعليم هؤلاء وإنما تزودهم فور تخرجهم بالأجهزة التى يعملون عليها - ويحرصون في اختيار هذه الأجهزة أن تكون أحدث وأعظم الأجهزة المتاحة - وفى القدس الآن واحداً من أحدث أجهزة الموجات فوق الصوتية يتولى تشغيله طبيب فلسطينى نابغ تلقى تدريبه هنا في كليفييلاند .

ويبدو أن المجتمع الدولى قد بدأ ينظر نظرة مختلفة إلى عرب الضفة الغربية وغزة ، فهذا مكتب الميديا يست يبتعث المرضات من الضفة الغربية إلى

مستشفى كليفلاند ، والضوء الأخضر في الوظائف الأمريكية مضاءاً تماماً
اليوم أمام الفلسطينيين، و الله تعالى أسأل أن يفك كربهم جميعاً .

وأحب أن أتناول الآن الحديث عن زملائي في الرعاية المركزة فقد يعطيك
هذا صورة حية عن الأطباء الأمريكيين الشبان .
هناك هيكل واضح في الرعاية كما في كل مكان.
هناك ثلاثة نواب يقضون فترة نيابتهم.
وهناك ثلاثة زملاء في عامهم الأول من الزمالة .
وهناك اثنان من الزملاء في أعوامهم المتقدمة من الزمالة.

أما النواب الثلاثة فهم مور More وهو شخص ضخم البنية حسن الخلق
وحسن الخلق أيضاً عمل نائباً للعظام في بداية نيابته ولكنه سرعان ما تحول
إلى الأمراض الباطنة وهو جيد الاستماع جيد الفهم .

جاستون شتين Stern تخرج تبعاً للنظام الذي يعطى شهادة D.O. وهو
دودة كتب كما يقولون ولكنه لطيف ومتواضع رغم كل ما قد يبدي من غرور،
إذا قدم حالة وكثيراً ما يفعل فإنه يفيض في تفاصيل لا أول لها ولا آخر ،
ولكن ميزته الكبرى — كطبيب — أنه حريص على تفسير كل شيء في ضوء
ما يعرف وحين لا يعرف — وقليلاً ما يحدث — تراه ينتقد نفسه إلى حد أنه ذات
مرة بدأ حديثه عن الحالة (وكانت حالة لاعتلال عضلة القلب من النوع
المتمدد) بالقول بأنه لا بد أن يرميه الأستاذ من الشباك !! هكذا لأنه لم يحقق
نجاحاً في العلاج.

النائب الثالث هو نبيلة رحمة الله باكستانية وقد ابتدرتني في أول أيامنا
بالقول : أنت صائم ومن المفترض أننى كذلك ولكننى كما ترى لا أستطيع
الصوم في ظل هذا العمل ، وإلا كانت حماقة ! ونبيلة ملمة تماماً بكل المنهج —

عندها فكرة واضحة عن كل فصول كتاب «القلب» وربما ساعدها على ذلك أنها تحمل في جيب معطفها الأبيض مذكرات ملخصة لأجزاء التي لم تستوعبها بعد من موضوعات القلب .

وقد أتت في ذات يوم أن أطلع على كتابها الخاص « سيسييل لوب » في الأمراض الباطنة فأدركت كم عانت هذه الفتاة في سبيل دراستها للطب. ولابد أن أسجل أن " نبيلة " التي كانت أصفر من ميشيل ومن جاسون لم تكن تقل عنهما أبداً لا في مستواها العلمي ولا في المستوى المهني.

يساعد هؤلاء النواب الصغار أو يشرف عليهم ثلاثة آخرون من الزملاء الذين أنهموا لتوهم فترة النيابة . ريتشارد جريم نموذج بارز للوسامة الأمريكية حيث تجد شعره قد نسق بالليل وكل ليل بحيث يعطى في الصباح ذلك المنظر الجميل لخصلة تأتي من الشمال إلى اليمين تتقدم الرأس بخمسة سنتيمترات على الأقل - وجهه الأبيض وعيونه الزرقاء يعطيان لهذا الشعر الأصفر بعدين آخرين - ثم هو هادئ الأعصاب ، خفيض الصوت ، وهو النموذج الأمثل في نطقه الأمريكي للغة الإنجليزية (على طريقة الفرنسيين) بما يحذف من ثلاثة أرباع الكلمة.

واعتقد أنك تعرف أن الأمريكيان يختصرون كل ما يمكنهم اختصاره ويحولون الكلمات إلى وهذا هو الآخر بدوره يختصر كل الكلمات إلى حرفها الأولين وحين يفعل ذلك في براءة يبدو لك كما لو أنه لن يستطيع أن يكمل نطق الكلمة وإلا ذهب ضحية استكمالها ..

ريتشارد يقضى عامه الأول في زمالة القلب ولهذا يضغط عليه الأطباء الكبار بالأسئلة العلمية وينتظرون منه دوماً أن يجيب بمجرد البدء في السؤال، وكثيراً ما يكون عند حسن ظنهم .

فيليب جرين Green نموذج آخر للهدوء النفسى والتواضع والامام التام بعمله وبعمل غيره . لا تكاد تدرك أبداً أنه من الفئة المتوسطة بين النواب ، وإنما يعترك الشعور دائماً أنه من الصغار ، نظراً لتواضعه ، واندماجه التام في عملهم . بلا إنه كثيراً ما يتولى قراءة الشيت بدلاً منهم – وعلى قدر تعاطفه التام مع زملائه اللاحقين فإنه حريص على أن ينبه إلى أية ملاحظة ذات شأن اكلينيكي تفوتهم أثناء النقاش وهو حين ينبه إلى ذلك خفيض الصوت ، حى ولكنه قاطع باليقين .

الثالث Holden كان في أجازة ولكنه حين عاد كنت قد انتقلت إلى معمل القسطرة فلم أتعامل معه كثيراً ولكنه فيما اتضح من حديثنا المتكرر ولقاءاتنا العابرة شخص نبهه منتبه ، سليم الفطرة.

إذا انتهينا من هؤلاء الستة بقى لنا الإثنان الكبيران . أما كلفن فهو من أصل أيرلندى وهو في التاسعة والثلاثين من عمره وقد وصل في الطب إلى مرحلة الـ Staff ولكن في فرع آخر هو طب الطوارئ حيث قضى ٦ سنوات في طب الطوارئ بالطيران وغيره واكتسب خبرة كبيرة في هذا المجال ، وكان قد قضى ٣ سنوات نيابة في الأمراض الباطنة . ثم إذا هو يبدأ الزمالة من جديد في أمراض القلب . ربما كان محظوظاً أن النظام الطبى سمح له بمثل هذا التغيير بعد كل هذا الوقت ، وربما كان ملاماً من زملائه أن يبدأ من جديد . ولكنه على أى الأحوال سعيد بهذا الذى هو فيه . كلفن هذا هو المسئول عن مساعدتى طيلة وجودى في الرعاية المركزة وهو لا يدخر وسعاً في ذلك . له الفضل في تعريفى على مهل بكل تفصيلات نظام التعليم الطبى في أمريكا وله الفضل في تعريفى – التعريف العميق – بكثير من العاملين في قسم القلب ومعامله ، وبكل الذين في الرعاية المركزة بالطبع . وعنده قدرة ممتازة – ربما بحكم السن وربما بحكم الخبرة في تخصصين مختلفين . على منْطقة الحوار – أقصد أن يجعل للحوار رؤساً وعناوين كبيرة بدلاً من أن يتركه يمضى خبط عشواء .

ذات يوم بعد ما تعبنا من الوقوف طيلة ساعتين ونصف الساعة في مرور الرعاية المركزة قلت له ولزميله مارك : لماذا تمرن وقوفاً - لماذا لا تمرن جلوساً؟ قال في تعاقب : لو كان الأمر بيدنا لمرنا جلوساً - بعد أقل من ٢٤ ساعة كان الأمر بيدنا نحن الثلاثة - أرسل إلينا الدكتور جبران لنبدأ المرور - نظرنا إلى بعضنا ودعونا الزملاء والنواب إلى حجرة المؤتمرات ومررنا ونحن جلوس!! كلفن متزوج من زميلة تحمل درجة Ph.D. في العلوم وتعمل معنا في معمل الفسيولوجيا الكهربائية (EP) في قسم القلب ولهما ثلاثة أولاد صغار لهم أسماء أيرلندية جميلة - بارك الله لهما فيهم .

الزميل الثاني وهو مارك رجل طيب يبلغ من العمر ثلاثين عاماً قضى نيابته في نيوجرسي حيث عاش لفترة طويلة من حياته - وحين تقدم لزمالة القلب كانت رغبته الأولى مايو كلينك وكانت الثانية مباشرة كليفلاند - تحققت له رغبته الثانية - وسط عدد كبير من المتقدمين لزمالة القلب كل عام في الولايات المتحدة الأمريكية . و مارك رجل عمل إلى أبعد الحدود ، حين أسأله عن شيء فإنه كان يؤثر أن يمضى معى إلى موضعه بدلاً من إضاعة الوقت في الوصف الصعب في مستعمرة كبيرة . أراه في الكتب الطبية قربية جداً من رأيي إلى حد كبير. من العجيب أننا كنا نحن الثلاثة متوافقين تماماً في صياغة كثير من آرائنا في أثناء المرور . تجمعنى بالزميل الصغير موضوعية الرأي عن خبرة تكاد تكون متقاربة ، وتجمعنى بالزميل الكبير منطقية التفكير وتحكمها في تعريف الأمور. و مع هذين الزميلين ومع أمثالهما في معامل القسطرة والموجات فوق الصوتية والطب النووي من بعد أحسست أنني حيث ينبغي أن أكون منذ زمن طويل - لم أحس الغربة لا في الفكر ولا في الأداء .. كلاهما جدير بالاحترام وباعت على الاحترام وحريص على الاحترام .

أريد أن أخص لك نظام التعليم الطبي في ولاية أوهايو كنموذج لولايات أمريكا - لأنى أعرف أنك تعرف أن لكل ولاية نظاماً ، ولابد عند الكلام عن

أمريكا الواسعة من التحفظ ياسيدى - ومع هذا فإن هذه الصورة على كل حال سوف تعطيك فكرة عامة عن نظام التعليم الطبى فى أمريكا .

هناك بعد الثانوية العامة كليات - هذه الكليات اسمها College يدرس فيها الطالب لمدة ٤ سنوات - بعدها هناك Medical School يدرس فيها الطالب ٤ سنوات أخرى . إذن هنا الـ College التى تناظر كليات الجامعة عندنا فى مرحلة البكالوريوس يتخرج فيها الطالب بما يوازي البكالوريوس - ويكون مهيناً لأن يعمل مثلاً بالتدريس ، أو أن يعمل كباحث ، أو أن يحضر الماجستير أو أن يحضر الدكتوراه فى فلسفة العلوم التى هى Ph . D .

طبعاً قبل كل هذا يتمنى أكثر خريجي الكليات أن يكونوا مهنيين لأن يكملوا دراستهم الطبية فى المدارس الطبية ولكنهم بالطبع وطبقاً للنظام التعليمى ليسوا كلهم مؤهلين لدراسة الطب فى مدارسهم .

وفى ولاية أهايو على سبيل المثال أكثر من ٢٠ كلية - يتخرج فيها ما يزيد على ثلاثة آلاف ومن بين هؤلاء تتاح الفرصة لأعداد قليلة فى ست مدارس طبية هى على سبيل الحصر على النحو التالى :

١ - المدرسة الطبية فى جامعة أهايو الحكومية فى كولومبوس وتقبل ما لايزيد عن ٢٠٠ طالباً فى العام الدراسى .

٢ - المدرسة الطبية فى جامعة كيس ويسترن ريزرف فى كليفلاند وتقبل حوالى ١٠٠ طالب .

٣ - الكلية الطبية فى جامعة سنسناتى Cincinnati وتقبل حوالى ١٠٠ طالب .

٤ - كلية أهايو الطبية فى توليدو وتقبل حوالى ٥٠ طالباً .

٥ - المدرسة الطبية فى جامعة رايت الحكومية فى دايتون Dayton وتقبل حوالى ٩٠ طالباً .

٦ - كلية أهايو الطبية فى أثينا - أهايو وتقبل حوالى ٢٠ طالباً .

وهذه الكلية بالذات تسير حسب نظام أقل شيوعاً في أمريكا تعطى من خلاله شهادة D.O. إختصاراً لما يسمى (Doctor of Osteopathic) وهذه الشهادة في النظام التعليمي الأمريكي معادلة تماماً لشهادة M.D. وبالإضافة إلى هذه المدارس توجد الكليات الطبية الآتية :-

- ١ - كلية أوهايو الطبية في سنسناتي .
- ٢ - كلية الطب Eclectic في سنسناتي .
- ٣ - كلية ميامي الطبية في سنسناتي .
- ٤ - القسم الطبى في جامعة ووتر - كليفلاند .
- ٥ - كلية توليدو الطبية في توليدو .
- ٦ - كلية كليفلاند الطبية في كليفلاند .
- ٧ - كلية كليفلاند Puti في كليفلاند .
- ٨ - جامعة أوهايو الحكومية - كلية الطب Homeopathic في كليفلاند .
- ٩ - جامعة شمال شرق أوهايا - كلية الطب في روستون .

ويتخرج من المدارس الطبية الست التى ذكرناها عدد لا بأس به من الدكاترة يحملون لقب M.D. فيكون أمامهم طريق مفتوح على النحو التالى يبدأون سنة الامتياز Internship تليها سنوات النيابة Residency (التى تؤهلهم لشهادة البورد الأمريكية فى التخصصات العامة) تليها سنوات الزمالة Fellowship (التى تؤهلهم لشهادة البور الأمريكى فى التخصصات الخاصة كالقلب). فإذا أردت التخصص فى الأمراض الباطنة ، فإنك سوف تبدأ بعام الامتياز فى الباطنة — فهو بمثابة عامك الأول من النيابة وتكون محتاجاً بعده إلى عامين آخرين فقط لتكون قد قضيت فترة النيابة .

الميزة الكبرى هنا — التى أحلم بأن أجد سبباً إلى تطبيقها فى مصر أن كل الخريجين يقضون فترة نيابة حسب ما يرغبون من تخصصات ، بل وفى

المكان الذى يرغبونه بقدر الإمكان (تبعاً لترتيب رغباتهم ، كثيراً ما تكون الرغبة الأولى هى الأولى بالتحقيق). ولكن المأساة التى أصرخ منها فى مصر هى مأساة الفرص غير المتكافئة. فعلى حين يلقى الطبيب المقيم الذى نال وظيفة فى الجامعة حظاً ممتازاً فى تعليم ممتاز وفرص ممتازة فإنه أيضاً يحظى ببداية النيابة مباشرة. أما الباقيون فإنهم غالباً ما ينتظرون ما لا يقل أحياناً عن ٣ سنوات لبداية النيابة . ربما لا يكون الفرق بين الواحد منا من المحظوظين وبين الآخرين إلا درجات قليلة. ومع هذا يكون الفرق حوالى ثلاث سنوات فى بدء الخبرة الاكلينيكية التعليمية. والمشكلة ليست فى السنوات الثلاثة وإنما فى تباعد الفترة بين الدراسة العلمية [بجانيها النظرى العملى والاكلينىكى] وبين التطبيق الميدانى والاعتماد على النفس .

الميزة الثانية التى أحب أن أتحدث عنها هى أنهم لا يبدؤون نيابات فى الباطنة الخاصة والجراحة الخاصة كما حدث وتوسعنا فى هذا الاتجاه فى جامعات مصر. الله وحده يعلم أيهما الصواب أن نبدأ بالتخصصات الدقيقة فى مرحلة النيابة أم أن نؤجلها إلى مرحلة الزمالة .

على أية حال أحب أن أضع أمامك صورة لتوجهات خريجي إحدى هذه المدارس الطبية الستة فى صياغة مستقبلهم العملى . المدرسة هى مدرسة رايت المسماة على اسم الأخوين أصحاب محاولة الطيران المشهورة . يتخرج هذا العام ٨٤ سيتوزعون تبعاً لرغباتهم على النحو التالى: ٢٤ فى الأمراض الباطنة العامة ، ٨ فى طب الأطفال ، ٩ فى النساء والتوليد ، ٩ فى الجراحة ، ٤ فى الأشعة ، ٢ فى التخدير .، ١٩ فى طب العائلة و ٥٢ من الخريجين بنات ، ومن هؤلاء قضت إحداهن أسبوعين معنا فى قسم القلب وكانت تخطط أن تقضى فترة نيابتها فى الأمراض الباطنة فى مستشفى صغير اسمه مستشفى St. Lukes Hospital وهى تفضل العمل فى هذا المستشفى الصغير على العمل فى كليفلاند

لأنها أثناء دراستها درست في الإثنين ووجدت [وهي على صواب] أن العمل في سان لويس سيكون أكثر فائدة وإمتاعاً لها لأنها ستشاهد حالات كثيرة من الأمراض شائعة وموجودة في كل مكان، أما في كليفلاند فهي لن ترى إلا الحالات التي تقدم بها المرض واحتاجت القدوم إلى هذا الصرح العظيم .. أليس هذا التفكير لشابة في مقتبل عمرها دليلاً على بشائر النجاح العمل والمهنة . وتضيف كيه (وهذا هو اسمها وهو اسم جاميكي ينطق كحرف الكيه الإنجليزي تماماً) أن كليفلاند كلينك ليس فيها النظام الجميل المريح الذي في ذلك المستشفى الذي عرفت الناس فيه ودرست أحوالهم جميعاً.

بقى أن أطلعك على جانب مهم من حياة خريجي الطب وطلابه فكيه هذه متزوجة منذ أربع سنوات مع تاجيل الإنجاب ، ، في عاميها الأول والثاني في المدرسة الطبية درست التشريح والبيولوجي والفسيولوجي والباثولوجي والفارماكولوجي والميكروبيولوجي والوراثة. وفي عامها الثالث أثرت الجراحة والنساء والأطفال وطب العائلة والنفسي. وفي عامها الرابع درست الباطنة والطوارئ والأشعة والتخدير والقلب والأعصاب والعظام.

أحب أن أحدثك بعد هذا عن طالب الطب الأمريكي . ولطالب الطب هنا احترام شديد.. أمامي بالصدفة على مكتب قاعة الاجتماعات خطاب من مؤسسة كليفلاند كلينك التعليمية لطالب في السنة الرابعة أنه قد رُشح طالباً في قسم القلب لمدة شهرين وأن له إذا وافق على ذلك أن يحضر صباح يوم الاثنين ، إلى مبنى التعليم ، فيتسلم الكارنيه الأصفر الخاص به ، وهو كارنيه بالاسم بلا صورة ، وأن يتسلم معطفين ، وله أن يترك سيارته في الأماكن التالية ... وأن يحضر يومياً من السابعة والنصف وحتى الخامسة من الاثنين وحتى الجمعة ، وأن الطبيب (فلاناً) سيكون هو المسئول عن تعليمه وأن السكرتيرة (فلانة) هي المسئولة عن الأمور الإدارية التي قد تعرض له .

وتحضر المؤتمر من مؤتمرات الأقسام فتجد هؤلاء الطلاب (بنين وبنات) هم أكثرنا جميعاً أناقة وشياكة .. فشعورهم خرجت لتوها من الصالونات ، وربطات عنقهم هي الأحداث ، والأجمل ، وهي المودة ، قمصانهم هي الألع والأكثر جاذبية .. وهكذا ، أصدقك القول أنى بعد حين من الوقت أصبحت قادراً على تمييز الطلاب حين نكون في قاعة المؤتمرات وهي مظلمة نشاهد شرائح أو أفلاماً بمجرد أن أنظر إلى رؤوسهم وأعناقهم وقبل أن أصل إلى صدورهم حيث يضعون الكارنيهات الصفراء.

ومعنا في قسم القلب طالس نشيط هو تيم ، في السادسة والعشرين وعروسه في الثامنة والعشرين ، وهو يقيم هنا في كليفلاند وهي تقيم في كنت - حيث يقيم والده ، وصاحبنا لا يغادر المستشفى قبل أن يطمئن على كل مرضاه ، ويبلغ النائب والمرضات بملاحظاته عن أية اضطرابات في نظام القلب ، وروح المسئولية عنده في الحقيقة تبشر بكل خير لهذا الشعب الأمريكى الذى يعتقد العالم في إهماله!!، وفي كل أسبوع يذهب إلى كنت مرة واحدة ليرى خطيبته لأن السيدات اخترعن لك مشكلات كثيرة ياسيدى إذا غبت عنهن لفترة ما !! هذه هي الكليتك التى ليست تابعة لكلية من كليات الطب ، ومع هذا أبت على نفسها إلا أن تنشئ مؤسسة تعليمية لنفسها - وأن تتولى تعليم النواب والامتياز والزملاء والمرضين والفنيين بطريقة نموذجية جعلتها بالفعل واحدة من المؤسسات التعليمية في الطب الأمريكى وإن لم تكن كلية طب.

وفي أثناء إقامتى في كليفلاند وبعد كتابة هذه السطور، علمنا من الجرائد أن اتفاقاً قد وُقِعَ بين جامعة أوهايو الحكومية وبين الكليتك لتتولى الكليتك التدريس لطلاب مرحلة البكالوريوس كما تتولى التدريس للمتخرجين ومن المنتظر أن يبدأ هذا النظام من العام الدراسى القادم مباشرة .

دعنى أحدثك عن بعض النشاط التعليمى الذى أشارك فيه فى قسم القلب ففى كل يوم فى الصباح المبكر ما بين السابعة والنصف والثامنة والنصف يجتمع كل زملاء القلب فى قاعة مؤتمرات القلب ثلاثة أيام ، وفى قاعة مؤتمرات الباطنة يومين آخرين حول شىء ما - يوم الأربعاء مثلاً هو يوم الموجات فوق الصوتية تعرض عليهم فيها حالات مشوقة أو صعبة أو نادرة.

فى كل يوم من الأيام الأخرى نستمع جميعاً إلى محاضرتين ممتازتين، ربما عن شىء جديد ، ربما عن رؤية جديدة لمشكلات طبية قديمة .. ومن أبداع ما يمكن تلك المحاضرة التى اشترك فيها أربعة .. طبيب عرض المعلومات الاكلينيكية وآخر عرض نتائج الفحص بالموجات فوق الصوتية وثالث عرض نتائج الفحص بالرنين المغناطيسى ورابع عرض نتائج الفحص بالقسطرة .. وكانت الحالة التى ناقشنا تشخيصها بكل هذه الوسائل تمزق الأنوريزميا التى فى جيب فى القلب اسمه جيب فالسفا ، شىء عظيم عظيم . هكذا تمضى الساعة الأولى من وجودى فى المستشفى فى كل يوم وبعد ذلك ينصرف كل إلى وحدته أو معمله الصغير. هل أحدثك عن النشاط التعليمى فى وحدة الرعاية المركزة مثلاً.. ريثما استقر الجميع فى أعمالهم فى الوحدة وكانوا كلهم جدداً .. بعد أسبوع تقريباً وزع الدكتور جبران عليهم أوراقاً علمية لكى يحضروها ويلقوها ويناقشوا فيها .. متى سيتم ذلك .. عندما تهدأ الأمور فى حوالى الثالثة عصر كل يوم. وكل خميس يأتينا فى وقت الفداء ما بين الساعة الثانية عشرة والساعة الواحدة واحد من أطباء الأشعة هو الدكتور وايت وهو شعلة من الذكاء والمنطق والخبرة (الإكلينيكية والإشعاعية) ومعه مجموعة هائلة من أفلام الأشعات الممتازة يضعها واحداً بعد آخر ، أو اثنين وراء اثنين على الفانوس أو الفانوسين ويشرح ما نسميه بالنظرى على الأفلام مباشرة !! رائع وأكثر من رائع .. ثم بعد أن يعطينا المعلومة يكثر من التطبيقات عليها.

فى ثانى مرة كان زميلائى مشغولين بحالة من الحالات الحرجة ، فأصبحت

أنا تقريباً أقدم الموجودين وأكثرهم خبرة على حد تعبيرهم - وعلى هذا كان المترددون في التشخيص يأخذون جانب الأقدم حين يعجزون عن تكوين رأى ذاتى - والحمد لله قلما خذلهم الوقوف إلى جانب الأقدم.

وانتقل للحديث بك عن النشاط التعليمى فى حجرة جانبية من معمل وظائف القلب .. لا يمر مريض على المستشفى أو العيادات الخارجية إلا ويؤخذ له رسم قلب ، ويوضع هذا الرسم بالطبع فى ملف هذا المريض. ولكن كل هذه الرسومات تسجل على شريط أو كاسيت وترسل إلكترونياً إلى هذه القاعة المسماة بقاعة رسومات القلب .. حيث تطبع كل الشرائط القادمة وتوضع على هذه المنضدة الطويلة التى عليها كل وسائل القياس الخاصة برسومات القلب.. بدءاً من المساطر إلى الفرجارات وحتى العدسة المكبرة .. إلخ. هذه الأدوات البسيطة التى نحتال بها على فهم أسرار رسم القلب الكهربائى.

ويأتى زميل من زملاء القلب Fellow فيتولى قراءة الرسومات جميعاً بعد ما قرأ الكمبيوتر ، فإذا وافق تشخيص الكمبيوتر كتب أنه موافق ووقع بحروفه الأولى ، وإذا أراد تصحيح شيء صححه ، ووقع ، وإذا أراد إضافة شيء أضافه ، ووقع.

وهناك خمسة من أساتذة القلب Staff يتولون القراءة النهائية لكل واحد منهم يوم ، ويوم الثلاثاء هو يوم الدكتور الفلبينى ، ويوم الأربعاء هو يوم الدكتور هودجان ، ويوم الخميس هو يوم الدكتور ويتللو ، ويوم الجمعة هو يوم الدكتورة جاميس وهى أصغر أعضاء هيئة أطباء القلب على الإطلاق.

كان من حظى أن اتولى وظيفة الزميل القارئ لمدة أسبوع كامل، فى اليوم الأول كان معى زميل وفى الأيام الثلاثة التالية كنت بمفردى. ربما تعرف من عيوبى أنى عجول فى كل شيء .. وما إن فهمت نظامهم فى التعقيب والإضافة إلا كنت أذهب مبكراً بحيث أصبح الفنيون والعاملون فى حجرة رسم القلب

لايلاحقوننى بالرسومات ويعجبون من تواجدى المبكر وتركيزى وسرعتى .. وكان أعضاء هيئة الأطباء كريمى الخلق معى إلى حد كبير، كانوا بالطبع يشجعوننى ، وقد تعلمت منهم الكثير جداً .. ولابد أننى تعلمت من هؤلاء مايلمه لنا أساتذتنا فى مصر من النظر إلى الحالة الإكلينيكية للمريض قبل التعليق على رسم القلب والكمبيوتر ياسيدى هو الآخر لا يغفل ذلك مع أنه بلا قلب على حد تعبير الأدباء الذين لم يعاشره !!.. فهو يذكر لك القسم من المستشفى الذى فيه المريض ، ويذكر لك عمره ، ويذكر لك الأدوية التى يتعاطاها كذلك، بالطبع ليس كل الأدوية وإنما تلك التى لها تأثير مباشر على رسم القلب أو على العناصر المحددة لكثير من التغيرات فى رسم القلب كالبوتاسيوم والكالسيوم. على أن أعظم ما يحب أساتذتى فى مصر أن يسمعوا عنه فى هذه الحجرة هو ذلك النظام المحكم الذى يسمح للأستاذ حين يريد أن يراجع هذا الرسم لهذا المريض على رسم قديم له أن يجد الرسم القديم فى دقيقتين أو ثلاثاً ، ما عليه إلا أن يطلب الرئيسة ، والرئيسة ستسأل الكمبيوتر والكمبيوتر يعطيها تاريخاً قديماً رسم فيه القلب من قبل ، والرئيسة تأمر الشرائط المغناطيسية بأن تخرج لنا صورة من هذا الرسم القديم وتناول لنا الرسم القديم بعد دقيقتين من طلبنا له !!

أعرف حالة لأستاذ طب مصرى سافر للعلاج ، وأجرى قسطرة.. كان يغنيه عن سفره وجود رسم قلب قديم ينبىء عن أن هذه التغيرات التى وجدت حديثاً كانت بسبب مرض حديث أو أنها لم تكن بسبب مرض فى القلب ، أو أنها من باب الاختلافات الطبيعية. وأعرف حالات كثيرة مرت علينا خلال يوم الدكتور هودجمان لم يكن لها حل إلا التحويل لإجراء دراسات الكهرباء الفسيولوجية ما لم يوجد لها هذا الأرشيف العظيم الذى ساعدنا على توضيح طبيعة تسارع ضربات القلب هل هى من فوق الأذين أو من البطين . كان الدكتور عبد العزيز الشريف يقول دائماً أن أصعب فصل فى علم القلب هو

اللغة الانقباضى .. وكنت أستعير مقولته مع تغيير الموضوع إلى فصل « تسارع ضربات القلب من الدق ر س العريض Tachycardia of wide QRS ، ومع هذا فأنا الآن أعتقد أن الأرشف الجيد يزيل صعوبة هذا الفصل الذى أتحدث عنه بحيث تبقى مقولة الدكتور عبد العزيز الشريف أقرب إلى الواقع في وجود نظام جميل وفي غياب جهاز الموجات فوق الصوتية . أما في وجود التكنولوجيا (جهاز الموجات فوق الصوتية) وغياب النظام (الأرشيف الجيد) كما هو الحال في مصر فستبقى لمقولتي السيادة حتى يسود النظام . وبعد أن ننتهى من تعليقاتنا على رسم القلب يتناولها الفنيون فينقلون تعليقاتنا إلى الكمبيوتر ويرسلونها إلى الأقسام المعنية بمرضها إذا كانت لها علاقة مباشرة بتشخيص أو علاج ثم يضعون هذه الرسومات بكل ما عليها من تأشيريات وتعليقات في جانب من الحجرة تحت لافتة تقول إن هذه الرسومات متاحة لمن يريدونها من الأطباء والطلاب والنواب والمرضات يقرأونها ويتعلمون منها شريطة شيء واحد ، ألا يعيدوها إلى هذه الحجرة حتى لا تحدث ارتباكاً بوضعها مع الرسوم الجديدة .

إلى عهد قريب كانوا يقرأون الموجات فوق الصوتية بنفس الطريقة ، ولكنهم منذ شهور كفوا عن هذا اللقاء الذى كان يعقد في الخامسة من بعد الظهر ، وأصبحوا يكتفون بعرض أسبوعى للحالات النادرة أو الطريفة.

وفي معمل وظائف القلب أيضاً مكتبة تعليمية عن استخدامات الموجات فوق الصوتية في كافة أمراض القلب ، بعض هذه الشرائط أنتجته جمعية القلب الأمريكية بالتعاون مع مايو كلينك ، وبعضها الآخر أنتجته الأقسام العلمية في الشركات المنتجة لأجهزة الموجات فوق الصوتية كشركة الكاسون وشركة هولت بيكارد .. وما عليك إلا أن تضع الشريط وتقرأه كما يقرأ الناس شرائط الفيديو .. تُبْطِئ الشريط حين تحتاج التأمل وتسرع حين تكون في حاجة إلى تخطي الفقرة كلها.

وفي تقارير القسطرة التي يوسعون بها الشرايين يحرسون على وضع الصور المطبوعة من الأفلام فيما قبل التوسيع وفيما بعده لكل شريان أو فرع من شريان أو جزء من شريان أجريت له عملية التوسيع .. سواء بالبالون أو بتقطيع الجلطة أو بوضع الـ Stent في الجدار .

فإذا تركنا قسم القلب إلى قسم الباطنة العامة وجدناهم يجتمعون أيضاً في مؤتمرات صباحية ، أنا مشغول عنها بالطبع بمؤتمراتنا الصباحية ، ولكنني اكتشفت أنهم يجتمعون كل ظهيرة فيما بين الثانية عشرة والواحدة في مناقشة حالات طريفة من التي تقابلهم ، وفي يوم الخميس يخصصون اللقاء لمناقشة بعض المقالات المنشورة في المجلات الطبية ويدير هذه الاجتماعات في حضور الأطباء الكبار الدكتور باتريك وهو أحد الحائزين لوظيفة مشارك اكلينيكي Clinical Associate و هو في مقتبل عمره ويتمتع هذا الطبيب بقدرة فائقة على الرذالة على زملائه شأن كاتب هذه السطور الذي يدعو الله سبحانه وتعالى أن يخلصه من عيوبه المتزايدة ، سأضرب لك مثلاً واحداً على رذالته ، كان في يوم الجمعة ينبه إلى وجود صور من المقالات التي ستناقش الخميس القادم ، فإذا به يرجو النواب أن يقرأوا هذه المقالات جيداً ثم يردف بالقول أما الذين يحضرون الخميس من دون أن يقرأوها فإنني أرجو أن يأخذوا غداءهم وينصرفوا قبل بدء مناقشة هذه المقالات !!

على هذا النحو تجد كل صباح قائمة بالكمبيوتر تضم ما لا يقل عن مائة وخمسين لقاء علمي تتم في قاعات هذا المستشفى المختلفة في الأوقات المختلفة وأمام كل لقاء مكانه وموعده وعدد المفترض حضورهم ، والسكرتيرة التي يستعلم منها عنه ، وبعض الملاحظات عما إذا كان هناك شروط للحضور ، في حالة المحاضرات المرتبطة ببرامج التعليم الطبي المستمر أو برامج الدراسات لما بعد التخرج ، أو الدراسات المتعمدة .. إلخ

هذه نماذج سريعة تعطيك فكرة عن الاداء التعليمى فى هذا الصرح الطبى
فإذا بهرتك بعد ذلك النتائج التى يخرج بها المرضى من زيارتهم فتذكر أن
الهدف من الطب عموماً ليس علاج المريض فحسب ولكنه تقدم التعليم الطبى
من أجل علاج هذا المريض فى المستقبل بصورة أمثل!!!

فإذا وجدتني فى موضع آخر من كتاب آخر من كتبى مصمماً على أن
أصبغ الطب كله فى مصر بصبغة تعليمية بحيث تنتمى كل مؤسسات العلاج
الطبى وكل مؤسسات الرعاية فى مستوييها الثانى والثالث كله إلى مؤسسات
التعليم الطبى طبقاً لنظام متكامل ومتدرج فأعلم أن جذور فكرتى القديمة قد
لاقت غذاء فى هذا المستشفى .

ومن قال إن الطب الأمريكى بحاجة إلى أن يتقدم بخطوات واسعة أو حتى
خطوات بطيئة ، إنما تتقدم اليوم التكنولوجيات التى تساند خطوات التقدم
الطبى التى تحققت فيما مضى ، ويتقدم تطوير هذه التكنولوجيات وتسخيرها
لخدمة أهداف التشخيص والعلاج والمتابعة .. تكون النتيجة أن الطب يتقدم ،
ولكن الفن الذى فى الطب نفسه لا يصيبه شيء أبداً من التقدم، ربما تعجب
بشدة لهذا الكلام ولكنك إذا كنت طبيباً أمريكياً وعاملت الأطباء الفرنسيين
ووجدتهم مثلاً يغيرون الجرعة المعهودة فى العلاج لجرد الإحساس بأن تقليل
الهيبارين من ٦٠ ألف إلى ٣٠ ألف قد يعطى نفس النتيجة .. ربما تصيبك
الدهشة القائلة أن ترى الأطباء يفعلون هذا الشيء من دون أن تكون لديهم
دراسات مطولة أثبتت بكل التحليلات الإحصائية صواب ظنهم. دك من
تغيير الجرعة وتعال إلى تطوير طريقة من الطرق الجراحية مثلاً كيف يدرسها
الأمريكيون تفصيلاً وكيف تنتهى دراساتهم إلى أنها لا تمثل تحسناً يذكر إلا
بنسبة ٥٪ . ثم إذا هم يتجرأون وينفذونها وتنجح .. بعد نجاحها يمارس
الإعلام الأمريكى الخطير دوره الجهنمى، فنسبة نجاحها إلى ما قبلها كاسماء

إلى الأرض ومخاطرها لا تتعدى ١٪ وتحسيناتها تمثل ٩٥٪ من طموحات الأطباء فيما قبل .. وهكذا ، نجاحات الطب في أمريكا مزيج من تكنولوجيا دائبة البحث ، وإعلام ذى صوت عالٍ .. وهذا المزيج قائم على مزيج آخر أخفى من أن تراه عيناك مباشرة : فالتكنولوجيا مزيج من بحث نظري مستमित ومجموعة لا متناهية من قواعد معلومات لا تترك صغيرة ولا كبيرة .. والإعلام مزيج من دراسات علمية اجتماعية وإنسانية عميقة ، ولغة تجمع بين الدقة والتعبير في قدرة عالية على المواءمة لا يستطيعها إلا من وصل إلى درجة الساحر الذى يبلع النار وهو يسير على السلك المشدود بقدم واحدة مصنوعة من خشب هش يذروه الرياح : وهأنذا الخص لك عوامل النجاح بطريقة ١ - ٢ فأعد لك :-

□□ قواعد معلومات مجددة كل دقيقة ، متواصلة فيما بينها إلى أقصى الحدود، سهولة الاستخدام .

□□ دراسات علمية واجتماعية وإنسانية عميقة قادرة على مخاطبة الإنسان بكل ما فى الإنسان .

□□ استخدام سحرى للغة لا يقلل سرعتها فيدركها الزمن الذى لا يتوقف .. هى تعرف سرعته ولهذا تخافه خوفاً محسوباً ولكنه يتزايد مع كل حين لأن الزمن نفسه يكتسب من التكنولوجيا أبعاداً هائلة .. فالتكنولوجيا تخلق من الزمن فرانكشتين يربعها هى نفسها .. التكنولوجيا لابد أن تنتشر حتى تحقق العائد الكفيل بأن يجعلها تزدهر .. وإنتشارها يصعب من ازدهارها ويجعلها مطالبة بتحقيق ازدهارات أكبر في أوقات أقصر .

□□ إعلام لابد أن يكون قادراً على إدخال التكنولوجيا حتى ولو كان هذا على حساب تكنولوجيات أخرى كان هو نفسه المبشر بها !!

وهذه هي أمريكا التي تظهر للطبيب تحت الميكروسكوب في أى مؤسسة طبية من مؤسساتها الناهضة.

هل تحدثنا ياسيدى عن بعض الميكروبات التى تحيط بهذه الصورة تحت الميكروسكوب للطب الأمريكى ، نعم بسوسعى أن أحدثكم ولكنه حديث هوأجس:

□ □ ألمح هناك حقيقة - لا أرى ولكن ألمح - ضجراً متواصلاً من الإنفاق على كثير من البنود فى الرعاية الصحية بما لا يمثل مردوداً حقيقياً على صحة المواطن الأمريكى ولا على تقدم العلم.

□ □ ألمح أيضاً بؤادر رغبة على استحياء من النفس فى الخروج بالطب الأمريكى كنشاط اقتصادى إلى ما وراء الأطلنطى .

□ □ ألمح أيضاً وبصعوبة بالغة رغبة فى إعادة تقييم نظم التأمين الصحى المطبقة وخصوصاً مع التفاوت الرهيب فى تكاليفها وعوائدها ومردوداتها وضجر الأطباء من بعضها وإحجامهم عن مواصلة العمل فيها.

□ □ ألمح أخيراً خوفاً من تزايد اعتماد أمريكا على التكنولوجيات الأوروبية واليابانية فى الأجهزة الطبية إلى أكثر من الاعتماد شبه الكلى القائم الآن . وفى ظل انتفاء أو تقلص الرغبات الأمريكية فى اقتحام هذه الأسواق !!

الفصل السابع المسلمون في أمريكا طيف واسع من الألوان الجميلة

المسلمون في أمريكا شأنهم شأن المسلمين في كل مكان طيف واسع من الألوان الجميلة التي لكل منها حلاوته وروعته وجلاله . والاختلافات بينهم لاتعكس إلا حرص المسلمين على إعلاء كلمة الله وعلى إعطاء العقل مكانة في ذات الوقت . قوة الحجة تجعلك إذا كنت منصفاً لا تميل إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء بقدر ما تكتشف في نفسك تواضعها وميلها إلى القول بأنك لست بفقير ولا مفت . كل يعمل من منظور ما وهو يظن نفسه مقصراً في حق دينه رغم كل إخلاصه لمنظوره . والإسلام الحقيقي يزدهر في قلوبهم ويتنامى في عقولهم ويتعمق في أعمالهم ، وفي كل يوم ترتفع له راية جديدة إلى جانب راياته التي ارتفعت من قبل .. وطبيعة الدين السمح تقربهم من بعضهم ... وروح النظام الجميل في الإسلام الجميل تتيح لهم اللقاء المنظم بدون تكلف ولا عناء سواء في الصلوات أو في رمضان الكريم ، شهر البركة والإحسان.

ومع هذا لا بد من أن أحدثك من باب الرواية فقط عن بعض الاختلافات الجميلة .. فهذا إمام مسجد لا يمانع في أن يأخذ المجتمع الإسلامي من البنت

قرضاً محدد الفائدة ليقيم التوسعات.. ولكن إمام مسجد المدينة المجاورة يرفض المبدأ من أصله.

هذا المركز الإسلامي الكبير في لوس أنجلوس لا يمانع في تناول اللحوم المتاحة باعتبارها من طعام أهل الكتاب .. ولكن إمام مسجد ابن تيمية في ذات المدينة يرى أنه لا مبرر لتناول هذه اللحوم مادام هناك جزار يذبح حسب الشريعة الإسلامية .

هذا المسجد يتيح لقاء الرجال بالنساء لأنه يريد للمجتمع الإسلامي أن يتعارف وأن تتقوى روابطه بالمصاهرة مثلاً، أما ذلك المسجد : فلا يتيح على الإطلاق أى اتصال بين الرجال والسيدات.

أعظم ما في كل هذا أن المسجد دائماً يحمل لافتة المركز الإسلامي . أقصد أنه ليس هناك مركز إسلامي ليس بمسجد .. أرجو وادعو الله أن أشهد اليوم القريب أن تكون المدرسة هي الأخرى المركز الإسلامي .

من الطرائف التي حدثت لأحد زملائنا في كليفلاند أنه وهو سائر بسيارته في أيامه الأولى في شارع يوكليد وجد مبنى عليه لافتة مسجد القرآن Quran Mosque سر صاحبنا سروراً عظيماً لهذا المبنى الجميل الأنيق وواجهاته الزجاجية وعزم على الصلاة فيه .. لكنه كلما أتى باباً وجده مغلقاً ، وعليه لافتة أن الدخول للأعضاء فقط - ومن وراء الأبواب الزجاجية لمح موائد وبارات عامرة بأنواع الكحوليات كلها وبلا حصر ولا عدد .. قال في باله : ما علينا .. أمريكا فيها كل شيء .. قد يكون مسجداً ونادياً في ذات الوقت !! وفي النهاية وجد باباً مفتوحاً يخرج منه شخص ، تقدم إليه وسأله أين باب الصلاة ؟ من حسن الحظ أن هذا الشخص كان مثقفاً وعرف أن صاحبنا مسلم فأجاب أنه

هذا ليس بمسجد، وإنما هو ناد من نوادي إحدى الجمعيات الماسونية اتخذت له هذا الاسم من قبيل الديكور ليس إلا .. وتطوع الرجل فأرشد صاحبنا إلى مسجد بلال أو المسجد الحقيقي كما قال له .

أول جمعة لى فى كليفيالاند صليتها فى مسجد جميل قرب الجامعة وميدان الجامعة هو مسجد عقبة بن نافع رضى الله عنه وأرضاه . عرفت أن الطلبة المسلمين فى جامعة كيس ويسترن هم الذين تولوا شراءه وتجهيزه كمسجد.

المسجد بسيط ولكنه كفيل بأداء كل وظائف المسجد والمركز الإسلامى ، الملح كثيراً من المصريين بين الحاضرين وكذلك الملح فلسطينيين وعراقيين وشوام .. بالإضافة إلى الأمريكين .

السيارات تحيط بالمسجد فى شوارع جانبية كثيرة ، والإمام اليوم هو أحد التجار الفلسطينيين وهو صاحب الجزيرة الإسلامية ، الخطبة باللغة العربية ثم بالانجليزية Brothers & Sisters .

الدعوة إلى الإفطار تتجدد وفى هذا الأسبوع أيام إضافية كذلك . بعد الصلاة التقى بكثيرين من طلاب بعثات منح السلام المصرية .

المسلمون الأمريكيون حريصون وهم يقودون سياراتهم بعد أداء الجمعة أن يبطنوا سيرهم ليلقوا علينا السلام هم وأسرههم كذلك .

شعور جميل وعظيم ينتاب المرء منا وهو يرى نفسه واحداً من جماعة تجمعها كلمة واحدة هى كلمة التوحيد — تختلف الألوان والألسنة والمهن وتجتمع فى المسجد . تختلف المصالح والأغراض والوجهات وتجتمع مختلف السياسات والأوطان وتدور رعى الحروب هناك وتجتمع هنا .. ونحن نجتمع

في كل حين لأن الله أراد لنا أن نكون أمة واحدة وستكون بإذنه تعالى أمة واحدة ، وبدأ واحدة ، وإلى يوم الدين.

انتويت في جمعة تالية أن أصلي في مسجد بلال الذي في شارع يوكليد ، أين هو بالتحديد ، لا أعرف كل ما أعرفه أنه على يمينك وأنت ذاهب إلى وسط البلد من المستشفى . ما علينا نسأل سائحة الأتوبيس وبالتأكيد لن نعرف فيكون من الطبيعي عندئذ أن تقترح عليك حلاً ادفع التذكرة واركب وتطلع إليه حتى إذا وجدته فاهبط .. وهذا ما حدث بالفعل .. وجدت مسجد بلال رضى الله عنه وأرضاه ونزلت .

المسجد جميل جداً وخلفه مساحة انتظار هائلة وهى حافلة والحمد لله بالسيارات ، المسجد مبنى بالخشب الأوك الجميل وسقفه على هيئة شبه قبة جميلة بحيث تمتد أذرع متناسقة من الخشب لتكون سقفاً يتوسطه دائرة صغيرة جداً فيما عدا هذا فلا يتكون من السقف سطح أبداً إنما هو جمالون جميل جداً .

والمسجد من طابقين : في الدور الأرضى دورات المياه واستراحات وقاعات واسعة وفي الدور العلوى ساحة الصلاة وهى مغلقة تماماً لأبداً أن تفتح باباً حتى تدخل إليها وفي هذه الطريقة التى تستقبلك بعد صعودك السلم تجد حجرات للمكتبة وللإمام وللسكرتارية وتجد رفوفاً للأحذية .. ثم تفتح الباب المنزلق الذى سرعان ما يعود إلى الإقفال لتدخل إلى قاعة الصلاة.

وجدت الأحذية لا تتجاوز سبعين فقلت في سرى كأنهم هنا أيضاً لا يلتزمون جميعاً بتركها في الخارج على الرفوف المعدة .. فلما دخلت المسجد وجدت أن عدد المصلين والمصليات قليل بالفعل .. هذا أول مسجد أصادف فيه

المصلين في مقدمة المسجد والمصليات في المؤخرة بدون فاصل إلا المساحة الكبيرة الخالية من المصلين .

الخطيب يخطب بالإنجليزية مع حماس جميل يجعل الانجليزية تتسع لعبارات الوعظ الدينية القصيرة المكررة المؤكدة.

وحين أقيمت الصلاة أمنا شخص آخر استطاع قراءة الفاتحة بالعربية وفي الركعة الأولى قرأ قل هو الله أحد وفي الركعة الثانية قل أعوذ برب الناس... (كاننى أنا الإمام) . لم أستعذب اللغة العربية يوماً كما استعذبتها وهى تخرج مكسرة تماماً من فم الشاب الذى أقام الصلاة ثم وهى تخرج ما بين التكسير والسلامة من فم هذا الشيخ الذى صلى بنا الجمعة.

أحسست بعد الصلاة كم نحن مقصرون في حق هؤلاء .. إننا سعداء في كثير من الأقطار الإسلامية بما نقدم لهم في بعض الأحيان من فقات الأموال أو حتى الأموال الضخمة .. ولكننا نحرهم أعظم شئ يربطهم بالإسلام وهو اللغة . لو بذلنا في نشر اللغة العربية واحداً في المائة مما تيزل فرنسا في نشر اللغة الفرنسية إلى الحد الذى وصفه لى صديق دبلوماسى أوروبى بقوله «وإجبار الناس على تعلمها» أقول إننا لو بذلنا واحداً في المائة من هذا الجهد في تعليم اللغة العربية لهؤلاء الذين يستحقونها لصلحت ديننا وصلاح ديننا .

إن فرصاً لا تعد ولا تحصى متاحة ومفتوحة ومرحبة بنصف مليون خريج من الشباب للقيام بدورهم في تعليم اللغة العربية للمجتمعات الإسلامية المنتشرة في أمريكا وأوروبا وأفريقيا وجنوب شرق آسيا .. كل ما هو مطلوب من هؤلاء أن يلموا باللغة الإنجليزية (أو غيرها) إلى الحد الذى يتيح لهم التعامل مع هذه المجتمعات من أجل الأخذ بيدها إلى تعليم اللغة العربية.

هذه المجتمعات ليست منظمة وليس أسهل من تعليم الصغار الذين يتوق
أهلهم إلى أن يسمعوا القرآن الكريم باللغة العربية من أفواه أبنائهم .. سواء
كان هؤلاء الأبناء لا يعرفون العربية أصلاً أو كانوا يعرفونها وشغلتهم الحياة
الدنيا وزوجاتهم عن أن يجدوا وقتاً يعلمون فيه أولادهم لغتهم الأولى ،
كثيرون من الذين يقرأون هذا الكلام سيتأكدون من أنني أبالغ حين أقول
نصف مليون ولكننى أخشى أن أقول إننى متواضع لأنى لو ذكرت الرقم
الحقيقى لكان أكثر من هذا بكثير .

تسألنى بالطبع عن التمويل .. إن هذه المجتمعات قادرة على التمويل لأنه
لا يكلف شيئاً .. هل توافقنى على أن تتصور المسألة بشيء من التقريب .. هل
ألف دولار كمرتب لهذا الخريج كافية - تجيبنى بنعم - هل عشرة في المائة من
مصرفات إدارية لتنظيم العملية كافية - تجيبنى بنعم - هل عشرون في المائة
كذلك لاستئجار أماكن ، إذا لم يكن هناك مساجد أو جمعيات إسلامية أو
جمعيات أخرى لتعطى الفرصة لاستغلال المكان الخاص بها في ساعات
محددة أو لم ترحب السلطات الحكومية بإدراج هذه العملية ضمن البرامج
الأساسية أو الإضافية في المدارس التى تضم عدداً كبيراً من هذه الجاليات مع
أن معظم السلطات توافق على مثل هذا المبدأ من مبدأ احترامها لحقوق
الإنسان، وحقوق الأقليات وحرية العقائد ومع أن الهيئات الشعبية المحلية
بالطبع حريصة بحكم النظم الديمقراطية على تهيئة هذه الفرص.

هل تكفيك عشرون في المائة على سبيل الإجمالى كاحتياطي للحالات التى
تحتاج تمويللاً لبند المكان تجيبنى بنعم .. إذاً هل مبلغ لا يتعدى ألف دولار
ونصف في الشهر يكفى لتعليم خمسين طفلاً أو قل أربعين يمثل مشكلة ٩٩

في أمريكا وحدها ما لا يقل عن خمسمائة ألف مجتمع مسلم في آلاف المدن الصغيرة وأحياء المدن الصغيرة (عدد المسلمين في التقديرات المتوسطة حوالي ٦ مليون مسلم) ينتظر هذه الفرصة لتكون هناك مدرسة ولو من مدارس الفصل الواحد في أيام الأحاد لإنجاز هذا الأمل العظيم الذي نتطلع إليه جميعاً بدون أن نبذل في سبيله إلا الجهود المتفرقة .

وأحب أن نفهم أن هذا المشروع كفيل بتطوير برامج ومناهج يوماً بعد يوم بحيث يصبح خير وسيلة لوجود اللغة العربية في موقعها الصحيح .. وبحيث يغفر للمسلمين تقصير بعض دولهم الرائدة كالدولة العثمانية في حق لغة القرآن . ومن الواضح أنني أتحدث عن اللغة العربية كلفة ثبانية إلى جوار الإنجليزية وهذا لا ينفي بالطبع أنني أتمنى أن أعيش حتى أرى العربية هي اللغة الأولى لكل مسلم على وجه الأرض ..

والأمر ياسيدي يستلزم حماساً تاماً لإتمام العمل من خلال منهج متصل معروفة حلقاته على مستوى العالم الإسلامي كله بحيث يقول الصغير في اندونيسيا إنه وصل إلى الدرس السابع والثلاثين من الحلقة الثانية مثلاً فيجد نفسه عند انتقال والديه إلى أمريكا يواصل الدرس الثامن والثلاثين مباشرة ، وبحيث يستطيع وهو في لوس أنجليس إكمال ما بدأه وهو في نيويورك ، وفي هذا المجال لا بد أن أذكر أن أمريكا نفسها حتى اليوم لا تزال تعترف بعدة لغات أوروبية كلفة أولى :

فاللغة الأسبانية هي اللغة الأم لثمانية ملايين شخص أمريكي.

واللغة الألمانية هي اللغة الأولى لخمسة ملايين آخرين .

واللغة الإيطالية هي اللغة الأم لأربعة ملايين أخرى .

وأرجو أن يأتى اليوم الذى تحتل فيه العربية مكانتها اللائقة بها وبخاصة انها اليوم هى اللغة الأولى الحقيقية لمئات الألوف من الأمريكيين المهاجرين. ولكن المشكلة التى أنبه إليها أنها تتراجع مع تعاقب الأجيال ربما إلى أن تصبح لغة أجنبية عند أبناء عرب مسلمين ولدوا فى المجتمع الأمريكى لأم أمريكية أو لأم عربية مسلمة يشغلها عملها عن أن تعلم أبناءها العربية فتركهم يعاملونها بالإنجليزية وكأنها تعامل الخواجات !! وتبقى العربية بينها وبين زوجها فحسب!!

أعرف أن الأمر يحتاج إلى وقفة متأنية فى التخطيط الدقيق وإلى أن نبدأ بولاية أو إقليم على سبيل التجريب الرائد ويحتاج إلى كثير من التنظيم واحترام النظام الأمريكى والتوافق معه تماماً .. ويحتاج إلى كتاب جيد التأليف وجيد الطباعة وجيد الإخراج ويحتاج إلى شبه هيئات مركزية تتولى تنظيم بعض الأمور كتوزيع الكتب وتسكين المدرسين والحصول لهم على التأشيرات .. وكل هذا إذا عرفت الحياة الأمريكية من باب واسع وقوى ميسر بإذن الله .

أعرف أن العقبة الكبرى أمام مثل هذا المشروع هى مسألة التراث المتراكم من ادعاء الفضل وحب الحمد بما لا نفعل إلى حد العذاب وهو ما حذرنا منه القرآن الكريم ، والاحتمال الأكيد فى أن تتنازع الإشراف على المشروع هيئات مختلفة كالخارجية والأوقاف والتعليم والقوى العاملة والهجرة وكل المؤسسات التى تتبعها هيئات لا علاقة لها من قريب أو بعيد بمثل هذا المشروع .. ولكن لو كان الأمر بيدى لتركته للجيش كما يفعلون فى فرنسا حين يجعلون تعليم اللغة الفرنسية فى الخارج أحد البدائل للخدمة العسكرية الوطنية الإجبارية .. حتى نقل هؤلاء الشباب إلى الخارج اتركه للطائرات الحربية لو أمكن !! حتى لا تصرخ مصر للطيران من رزق وفير لا تتعب فى

الحصول عليه وهى مع ذلك تشكوه كما تفعل في مواسم الحج وعودة المدرسين!!

واحب أن أقول إننى لا أحلم بمستقبل لا يتحقق أو غير قابل للتحقيق ولكننى أتحدث عن ماض تأخر وقوعه في ظل انشغالنا التام بأزمات كثيرة ابتلعت أوقاتنا والتهتنا عن مسئوليات سوف يسألنا عنها ربنا يوم القيامة فنحن نترك الخريجين بلا عمل ثمان سنوات ونترك أخوة في الإسلام يتعطشون إلى من يعلمهم لغة القرآن في ذات الوقت.

لم أنته من أحلامى هذه إلا وكنت خارج قاعة الصلاة أمام المكتبة فقلت لنفسى ادخل المكتبة لعل أجد أملاً ، فإذا بالياس يقتلنى .. المكتبة مجموعة من كتب تصلح لى مدرسة أمريكية ليس إلا .. وعلى رف أو رفين فقط من المكتبة الكبيرة جداً تجد مجموعة من المصاحف وصحيح البخارى وكتاباً في فلسفة توما الاكوينى .. كل هذا ما يمكنك أن تعتبره ذا علاقة ولو إلى حد بعيد بمكتبة في معبد! .. وعلى المنضدة التى تتوسط المكتبة تجد أعداداً من جريدة أسيوية إسلامية إعلامية مصورة فاخرة الطباعة والورق .. إذن فالطريق إلى هنا معروف ولكنه لا يحمل ما ينبغى أن يحمله من زاد بينى ضمائر المسلمين!!

أما أعداد المسلمين في أمريكا فتتضارب حولها الأرقام .. كما تتضارب حول أعدادهم في كل مكان ، وليس من شأن هذا الكتاب أن يحل لك هذا التضارب لأن مؤلفه لا يعهد في اليوم نفسه القدرة على الزعم بالوصول إلى الحقيقة في أمر يحتاج القول الفصل فيه كثيراً من الوقت والدراسة، ومع هذا فإنه يمكن بوسائل كثيرة تقدير أن عدد المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية لا يقل عن ستة ملايين شخص، على أنى مع هذا أحب أن أشير إلى خمس موجات للهجرة إلى أمريكا: الأولى فيما بين ١٨٧٥ ، ١٩١٢ وفي هذه الهجرة

جاء كثير من التجار وطلائع أدباء المهجر .الثانية فيما ١٩١٨ و ١٩٢٢ حيث تدفق مسلمو لبنان للعمل في مصانع فورد للسيارات في ولاية ميشيجان .الثالثة فيما بين ١٩٣٠ و ١٩٣٨ في فترة الكساد العالمى في الثلاثينات .والرابعة فيما بين ١٩٤٧ ، ١٩٦٠ فيما بعد الحرب العالمية الثانية .والخامسة فيما بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ . ويقال مثلاً إن حوالى عشرين ألف مصرى فيما بعد ١٩٦٧ قد هاجروا إلى ولاية نيويورك وحدها .

ولاشك أن أمريكا تفيد من العقول المسلمة أكثر مما يفيد المجتمع الإسلامى .. لا تظننى أديباً مجازى اللفظ وأنا أكتب هذه العبارة .. ولكن تأمل معى ما يعنيه أن أعداد الأطباء الإيرانيين العاملين في مدينة نيويورك وحدها يفوق كل الأطباء الإيرانيين العاملين في إيران. دعك من إيران وتأمل الجانب الآخر من الخليج العربى الذى تصر الصحافة الأمريكية على تسميته بالخليج الفارسى حيث العراق .. تجد أن أكثر من ثمانين في المائة من مبعوثى العراق إلى أمريكا لا يعودون إلى العراق بعد انتهاء بعثاتهم..

دع العراق وإيران واذهب إلى الباكستان حيث لا يزال الناس هناك يتعلمون بالإنجليزية ويتخرجون من جامعات تدرس الإنجليزية تجد أنه ما أن تعلن نتيجة كل الطلبة حتى يكون أكثر من تسعين في المائة من خريجي مدارس الطب واقفين أمام أبواب السفارتين الأمريكية والإنجليزية يبدأون كل المحاولات الكفيلة بالحصول على فرصة لقضاء النيابة في هذه البلاد.

أنا لا أعرف هل كان الأمر يصبح كذلك في مصر لو كنا ندرس الطب بالإنجليزية بدلاً من الفرائى آراب .. ولكننى متأكد من أنه لن يصبح كذلك على الأقل في هذا الجيل ، لأن معظم خريجي ما يسمى مدارس اللغات الانجليزية يعملون معنا في مصر ولا يندفعون إلى هذا الذى يندفع إليه الباكستانيون به

الباكستانيات .. لن أحدثك عن أهل الشام فأنت تعرف حبهم جميعاً للمهجر، من أجل كل ما هو جميل في المهجر ، وحرصهم على الوطن من أجل ما هو جميل في الوطن ولكني أحب أن أنتقل بك إلى هجرة الأيادي كما حدثتك عن هجرة العقول فلا تزال أمريكا بحاجة إلى كثير جداً من الأيادي . وللطبقات الفقيرة غير المتعلمة مكان أيضاً في أمريكا: في مزارع قصب السكر في فلوريدا و في نصب السياج حول مزارع المواشي والخيول في تكساس . و في جمع التفاح في فرجينيا و حصاد الشمندر في كولورادو و جنى القطن في نيومكسيكو. وأعمال النظافة في الفنادق الأمريكية.

ومع هذا كله فلازلت أرى أنه لابد من أن يشعر المسلمون في كل مكان أن أمريكا ليست لغيرهم فقط ، ذلك أن العالم الجديد كله نعمة من الله للعالم القديم كله . فإذا كان لابد من الحديث عن الحقوق التاريخية (على أساس أننا في عام ١٩٩١ التالي لعام الحقوق التاريخية) حقوق الاكتشاف فإنه من الثابت أن المسلمين اكتشفوا العالم الجديد في القرنين العاشر والثاني عشر الميلادي قبل كولبس كما أن المسلمين السود دخلوا أمريكا منذ ١٥١٨ كمهاجرين لا كرقيق وقد أفاض في تأصيل هذه المعاني جابر هاشم في كتابه MY NATION الذي صدر عن المطبعة الإسلامية في ١٩٨١.

ولابد أن نفهم أن ظلم المسلمين الأفارقة وإحضارهم كرقيق لم يحدث في مطلع العالم الجديد وإنما بعد ذلك بقرن أو قرنين وقد بلغ ذروته في الفترة ما بين ١٧١١ - ١٨١٠ على يد التجار البريطانيين والفرنسيين.

ليس هذا الكتاب مجالاً مستفيضاً لأحدثك فيه عن الدعاة إلى الإسلام وزعماء الحركات الإسلامية الحقيقية أو المسولة للعمل ضد الإسلام.. ولكني أستطيع أن أدلك على مجموعة من الكتب تحدثك عن هؤلاء : فهناك كتاب

"المسلمون في أوروبا وأمريكا" نشرته دار ازييس للتأليف والنشر والترجمة والنشر للأستاذ على المنتصر الكتانى ١٩٧٤ . وهناك كتاب «العرب في المهجر الأمريكى» للأستاذ عامر إبراهيم القنديلجى ، نشرته وزارة الإعلام في بغداد عام ١٩٧٧ . وهناك دراستان هامتان للأستاذ كمال كامل نمر الذى يشغل منصب المشرف التربوى في الاكاديمية الإسلامية السعودية في واشنطن : الأولى بعنوان أحوال المسلمين في أمريكا تربوياً ، وقد نشرتها في الدوحة عام ١٩٨٥ مؤسسة الشرق للعلاقات العامة للنشر والترجمة . والثانية تحمل عنوان "أضواء على أحوال خير أمة أخرجت للناس في الولايات المتحدة الأمريكية» وقد نشرتها عام ١٩٨٦ دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع في بيروت .. وهناك أيضاً كتاب «الجالية الفلسطينية في الولايات المتحدة الأمريكية» لرياض مقصود (١٩٨٠) . وهناك كتاب هام يحمل عنوان «صورة العرب في أمريكا» للدكتور عبد القادر أبو شريفة، نشر في شيكاغو عام ١٩٨٥ .

وفي فترة سابقة على هذه الفترات نشرت عدة دراسات وانطباعات هامة عن أمريكا لعل القراء يذكرون منها كتاب الأستاذ مصطفى أمين عن أمريكا (الذى أعيد طبعه مؤخراً في القاهرة) وكتاب الأستاذ سيد قطب الشهير ، وأذكر بهذه المناسبة أننى التقيت في مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة حوالى عام خمسة وثمانين بأستاذة أمريكية كانت تبحث عن الحلقات الأصلية التى نشرها سيد قطب عن زيارته لأمريكا قبل أن يجمعها في كتاب.. يبدو والله أعلم أن حرص الدارسات الاكاديمية الأمريكية بلغ الحد الذى جعلهم يقارنون الحلقات الأصلية بما جمع كتب ليروا ما قد يكون سيد قطب قد حرص (افتراضياً) على تعديله فيما بين النشرين!! وقد نشرت عن هذا الكتاب دراسات كثيرة منها

كتاب «أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب» لصالح عبد الفتاح الخالدي نشرته دار المنارة للنشر والتوزيع في ١٩٨٥ .

ليس هذا الكتاب مجالاً لتحليل أو تلخيص هذه الكتب وإن كنت أود أن أتمكن من ذلك عن قريب بعون الله ولكني لا أستطيع أن أترك هذا الموضوع دون أن أخذ على الدكتور كمال نمر تحامله على « ولاس محمد . والهيئة الإسلامية الأمريكية » فعلى الرغم من أن الدكتور نمر يشهد لولاس محمد بأنه قام بإصلاحات جذرية في عقيدة جماعته ، وأنه بادر إلى تغيير اسم الجماعة من أمة الإسلام أو البلاليين إلى الهيئة الإسلامية الأمريكية . The American Muslim Mission و « أنه أعلنها صريحة مدوية في مؤتمر رابطة العالم الإسلامي سنة ١٩٧٧ في مدينة نيويورك أنه هو وأتباعه جميعاً يشهدون منذ اليوم أنهم مسلمون سنيون يتبعون القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وطالب أتباعه بالصلاة والصيام والحج».

وعلى الرغم من شهادة الدكتور كمال نمر لهم بالقوة والنشاط ، فعددهم يربو على مليون عضو ولهم إذاعة تنقل دعوتهم لأعضاء الجماعة وللآخرين ولهم ١٥٦ مسجداً في ٣٩ ولاية وفي العاصمة واشنطن» .

على الرغم من ذلك إلا أن الدكتور كمال نمر شأنه شأن كل الأكاديميين يتحفظ فيهدف كل ذلك الخير بقوله إن هناك من ينظر إلى هذه الجماعة نظرة ريبية وتوجس معتبراً أنهم منبثقين عن القاديانية وهي جماعة مرتدة عن الإسلام .. ولك ياسيدي الدكتور نمر أن تتحفظ ولكن أن يكون تحفظك هذا صادراً أو مؤيداً فحسب بعبارات الأستاذ الكتاني كما نقلت فأمر لا نستطيع أن نفكر عليه لأن الكتاني نشر رأيه في ١٩٧٤ وأنت بنفسك الدكتور كامل نمر الذي تنبهنا إلى ما أعلنه ولاس محمد (صريحة مدوية في عام ١٩٧٧) .. إذن

كان لابد ياسيدى وأنت تملك أداة البحث العلمى الحق أن تدلنا على رأيك حتى لو كان متحفظاً.. أما أن تورد رأياً مخالفاً لرأى لتعقب على الرأى الأول فحسب فأسلوب لا بأس به فى البحوث الأكاديمية ليظهر ما نسميه بالموضوعية ، أو لينبئ عن كثرة مطالعتك للمصادر المختلفة متضاربة الآراء .. ولكنه يصبح قاصراً فى كتب من شأنها أن تحدث المسلمين عن عقائد المسلمين وتطورات هذه العقائد .

بقى أن اتحدث عن انطباعاتى عن الدعوة والدعاة وأكون مخطئاً إذا زعمت لك أن فى وسعى أن اتناول هذا الحديث باستفاضة أو فهم عميق ، ولكنى مع ذلك أحب أن اذكر لك انطباعى أن الإسلام فى أمريكا لا يحتاج إلى دعاة من أولئك الذين يرون أنهم غير ملزمين بتعلم اللغة الإنجليزية لأن القرآن نزل بلسان عربى ولأن لسان أهل الجنة عربى ، أو أولئك الذين يجدون كراهة فى تناول طعامهم بالشوكة .. أما المؤسسات التى تنظم عمل أولئك الدعاة فينبغى أن تكون أبعد ما تكون عن الولاء القومى !! طبعاً من الغريب أن تقرأ ياسيدى القارئ عبارة مثل هذه التى صدمتك بها لتوى ! ولكن هذه هى الحقيقة التى لابد أن نعرفها ، فالدعوة لوجه الله والولاء لدعوته ودينه ينبغى أن يكون الهدف الأول والوحيد لكل مؤسسة تعمل من أجل دعوة التوحيد .. فيما عدا ذلك فإن الولاء القومى والحزبى كفيلا أن يتحويل الأئمة إلى كُتّاب تقارير ، والدعاة إلى موزعى منشورات حتى وإن كانت هذه المنشورات كتباً .

ومع أن طريق الدعوة الإسلامية فى المهجر محفوف بكثير من المصاعب والمخاطر فإننى لا أشك لحظة واحدة فى أنه سوف يلاقى نتائج طيبة ربما بأكثر مما يتوقع العاملون فيه .

كتب للمؤلف

- ١ - الدكتور محمد كامل حسين عالماً ومفكراً وأديباً ،
(الكتاب الفائز بجائزة مجمع اللغة العربية الأولى في الأدب العربى عام ١٩٧٨) .
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
- ٢ - مشرقة بين الذرة والذروة ،
[نال عنه المؤلف جائزة الدولة التشجيعية في أدب التراجم عام ١٩٨٢] .
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠
- ٣ - كلمات القرآن التي لا نستعملها (دراسة تطبيقية لنظرية العينات اللفظية) ،
دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ .
- ٤ - يرحمهم الله (كلمات في تأبين بعض الشخصيات)
دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ .
- ٥ - من بين سطور حياتنا الأدبية (دراسات أدبية)
دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ .
- ٦ - الدكتور أحمد زكى ، حياته ، فكره ، وأدبه .
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤ .
- ٧ - مايسترو العبور المشير أحمد اسماعيل ،
دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ .
- ٨ - سماء العسكرية المصرية الشهيد عبد المنعم رياض ،
دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، ١٩٨٤ .

- ٩ - الدكتور على باشا إبراهيم ، سلسلة أعلام العرب ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٥ .
- ١٠ - الحلول الجزئية هي الأجدى أحيانا .. مستقبلنا في مصر ،
دار الاطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٥ .
- ١١ - التشكيلات الوزارية في عهد الثورة ،
الهيئة العامة للاستعلامات ، القاهرة ، ١٩٨٦ .
- ١٢ - الدكتور سليمان عزمى ، سلسلة أعلام العرب ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ .
- ١٣ - الدكتور نجيب محفوظ ، سلسلة أعلام العرب ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ .
- ١٤ - دليل الخبرات الطبية القومية مع مقدمة وافية عن تاريخ وحاضر مؤسسات
التعليم الطبى المصرية ،
مركز الإعلام والنشر الطبى ، الجمعية المصرية للأطباء الشبان ، ١٩٨٧ .
- ١٥ - الصحة والطب والعلاج في مصر ،
جامعة الزقازيق ، ١٩٨٧ .
- ١٦ - توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية ، المكتبة الثقافية ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨ .
- ١٧ - رحلات شباب مسلم ،
دار الصحوة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٩
- ١٨ - الببليوجرافيا القومية للطب المصرى ، الجزء الأول والثانى ، ١٩٨٩ ،
الجزء الثالث والرابع ، ١٩٩٠ ، الأجزاء من الخامس وحتى الثامن ١٩٩١ .
الأكاديمية الطبية العسكرية ، وزارة الدفاع ، القاهرة .
- ١٩ - منهج أدباء التنوير في كتابة تاريخ الأمة الإسلامية ،
رابطة الجامعات الإسلامية ، الرباط ، ١٩٩٠ .
- الطبعة الثانية : أدباء التنوير والتاريخ الإسلامى ، دار الشروق ، ١٩٩٤ .

- ٢٠ - مجلة الثقافة [١٩٣٩ - ١٩٥٢] : تعريف وفهرسة وتوثيق ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ .
- ٢١ - شمس الأصيل في أمريكا (من أدب الرحلات) ،
دار الشروق ، ١٩٩٤ .
- ٢٢ - أوراق القلب (رسائل وجدانية) ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
- ٢٣ - مذكرات وزراء الثورة [دراسة تشريحية تاريخية نقدية لعشر
مذكرات سياسية] .
دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
- ٢٤ - المحافظون (قوائم كاملة ، وفهارس تفصيلية وأبجدية ، ودراسة لتسلسل
وتطور اختيار المحافظين منذ بدء الإدارة المحلية في ١٩٦٠ وحتى الآن) ،
دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

المحتويات

٥ مقدمة
٩ الفصل الأول : هل تغيرت أمريكا
٤٣ الفصل الثانى : أمريكا تستعيد أم تستعير روح العصر
٥٩ الفصل الثالث : كليفلاند : المدينة والمجتمع
٧٣ الفصل الرابع : فى بيت عائلة أمريكية
٩٣ الفصل الخامس : كليفلاند كلينك : المكانة والمكان
١١٧ الفصل السادس : فى قسم القلب بكليفلاند
١٤٣ الفصل السابع : المسلمون فى أمريكا طيف واسع من الألوان الجميلة
١٥٧ كتب للمؤلف
١٦٠ المحتويات

رقم الإيداع ١١٣٤٨ / ٩٤
I.S.B.N 977 - 09 - 0255- 1

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

شمس لا ضيل في امريكا

« وأنا أعرف أن مهمتي في كتابة
رحلاتي شاقة عسيرة لأنني لا أصف
الطبيعة كما فعل الذين سبقوني ..
ولكني أحاول أن أصف الحضارة ،
ووصف الطبيعة لا يستلزم إلا الحاسة
الصادقة .. أما وصف الحضارة
فيستلزم مع هذه أقداراً متنامية من
الدقة والإحاطة والتعمق والفهم
والترتيب .. ويستلزم قبل ذلك أن
تكون جندياً من جنود الحضارة
لأفارساً من فرسان الطبيعة ، أن تكون
جندياً قارب نيل الشاهدة وأنخنته
الحضارة بآثار عمله من أجلها قبل أن
تكون فارساً أعطته الطبيعة بقدر ما
استمتع بها »



د . محمد محمد الجوادى

.....